بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى شيخنا وأستاذنا الفاضل:

"عبدالرحمن عبدالخالق"

أهدي هذه الأبيات:

يا من إليه قوافـل الركبـــان   تبغي العلـوم قوية الإيمان
لله درك يا ابـــن (عبدالرحمن)   فيك التقى والعلـــم يلتقيان
هذي علومك قـد أتيت ببعضـها   صيداً لعمرك صائد المرجـان
وجمعتها خطبـــاً تنبه سامعـاً   ضل الطريق وتاه في الوديان
يا شيخنـــا لا تلتفت لمشنـع   ومضـلل ومشكك فتَّـان
جاهد وذكـر واصطبر لا تلتفت   البحر أنت ورافـد الخلجان
أنت الذي ورث العلوم من الذرى   منهم (تقي الدين) و(الألبـاني)
أشجـار خيرٍ أثمرت أمثالكـم   يا حبذا الأثمـار بالأغصان
ثمراتكـم تبقى ويذهب حاسـد   كم من حسودٍ غار في الأزمان

أبو الحارث الخراز

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شـرور أنفسـنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هـادي لـه، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك له وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسوله.

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون}.

{يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحـدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقـوا الله الـذي تسـاءلون به والأرحـام إن الله كان عليكم رقيباً}.

{يا أيها الـذين آمنـوا اتقـوا الله وقولـوا قـولاً سـديداً يصـلح لكم أعمـالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً}.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب اللـه، وأحسن الهـدي هـدي محمـد، وشر الأمـور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد،

إليك أيها القـارئ الكـريم هـذه الكلمـات العميقة والعبـارات البديعة الـتي ألقاها شيخنا وأستاذنا عبد الرحمن ابن عبد الخالق -حفظه اللـه- من على المنبر وهو يخاطب بها طلبة العلم والجماهير.

وهي هتافات جزلة، ومضمون عميق، وفكر بصير استخرجها من معينه الثر المستمد من الكتاب والسنة، وهي خطب مرتجلة، ولكنها بليغة المضمون؛ رفيعة المعنى؛ من إمام نصح؛ وما زال ينصح أمتـه؛ ويرشـدها إلى الطريق الصحيح.

فبـادرت إلى كتابتها ليعم نفعهـا، وليعلم القـارئ أني قمت بضـبط أحاديثها وتخريجها دون إطالة مملة ولا نتف مخلة بـــإذن الله تعـــالى، ولعل هـــذه المجموعة تكـــون بداية الطريق في تـــدوين ونشر خطب الشـــيخ -حفظه اللـــه- علمـــاً أني غالبـــاً ما أقتصر على الخطبة الأولى، وأما الخطبة الثانية فتارة أبقيها لما فيها من زيادة علم وفائدة.

وأسـأل الله سـبحانه أن ينفع بها الجميـع، وأن يتقبلها بقبـول حسـن، وأن يجزي شيخنا خير الجزاء إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين

وكتب:

أبو الحارث الخراز

السبت 22 جمادي الأولى 1414هـ

الدعاة: بناء لا هدم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شـرور أنفسـنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هـادي لـه، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك لـه، وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخـير الهـدي هـدي محمد صـلى الله عليه وسلم، وشر الأمـور محـدثاتها، وكل محدثة بدعـة، وكل بدعة ضـلالة، وكل ضلالة في النار.

أكرمنا الله تعـالى بالانتسـاب إلى خـير الأمم، أمة محمد صـلى الله عليه وسلم الأمة التي شاء الله تبارك وتعالى أن تكون آخر الأمم، تحمل رسـالة الله تبارك وتعالى إلى آخر الدنيا.

يقول الله تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً} (الفتح:28).

ويقـول: {كنتم خـير أمة أخـرجت للنـاس تـأمرون بـالمعروف وتنهـون عن المنكر وتؤمنون بالله} (آل عمران:110).

ويقول: {وعد الله الذين آمنـوا منكم وعملـوا الصـالحات ليسـتخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً} (النور:55).

هذه الآيـات وغيرها كثـير تـبين أن اختيـار الله للأمة المحمدية لتكـون هـذه الأمة العزيـزة القائمة بـأمر الله تبـارك وتعـالى في كل العصـور إلى آخر الدنيا، وأن الله تبارك وتعالى لابد أن يمكن لها دينها الذي ارتضاها لها، كما قال تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمـتي ورضـيت لكم الإسلام ديناً} (المائدة:3)، فالملة والدين والطريق الـذي ارتضـاه الله عز وجل لهذه الأمة قد أخبر الله تبارك وتعالى أنه سـيمكن له في الأرض وأنه سيبقى إلى قيام الساعة، كما قال صلى الله عليه وسلك: [لا يــزال طائفة من أمـتي ظـاهرين حـتى يـأتيهم أمر الله وهم ظـاهرون] (أخرجه أحمد (4/244،248،252) والبخـــاري (6/632-13/293،442 الفتح) ومســـلم(1921) عن المغيرة بن شعبة).

هـذه الأمة العظيمـة، لا شك أنها لم تقم إلا بجهـود عظيمـة، جهـود النـبي صلى الله عليه وسلم والعصبة المؤمنة التي التفت حولـه، ودعت إلى الله تبارك وتعالى وقاتلت في سـبيله، ثم هـذه الأجيـال المتعاقبة جيلاً بعد جيل من العلماء، والوعاظ، والعباد، والدعاة، والمجاهدين في سبيل الله، فالأمة الإسـلامية بحمد الله قد بقي فيها الـدين، وبقي فيها الجهـاد، وبقي فيها ما شــاء الله عز وجل أن يبقى من الأمر بــالمعروف والنهي عن المنكــر، ولا توجد أمة في الأرض من أمم الأنبياء كان لها ما لهذه الأمة من جهاد وبذل، وتضحية وإعلاء لكلمة الله عز وجل، فلو نظرنا في تاريخ اليهــود، وهي أمة أكرمها الله عز وجل يومـاً من أيامهـا، وجعلها خـير أمم الأرض في وقتهـا، كما قال تعالى في شأنهم: {يا بـني إسـرائيل اذكـروا نعمـتي الـتي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين} (البقرة:47،122).

وقال أيضاً: {ولقد اخترناهم على علم على العالمين} (الدخان:32).

وهذا في بني إسرائيل، {وآتيناهم من الآيـات ما فيه بلاء مـبين} (الـدخان: 33).

لو نظرنـا، وقارنا بين الصـالحين والقـائمين بحـدود الله وأمر الله في هـذه الأمـة، أمة محمد صـلى الله عليه وسـلم وأمة موسى عليه السـلام وجـدنا الأمر شتان.

شــتان بين تلك الأمة وهــذه الأمــة، في قيامها بــأمر الله عز وجل وكــثرة الصالحين والمصلحين، ووجود جيل بعد جيل يدعو إلى الله تبـارك وتعـالى، ويجاهد في سبيل الله.

وكذلك أمة عيسى عليه السلام في كتاب الله أمة عظيمة داعية إلى اللــه، ولكن شتان بين من بقي على الدين والتوحيد من قوم عيسى عليه السلام وقام بأمر الله عز وجل حق القيام، وبين هذه الأمة الإسلامية الـتي ركـزت

واسـتقرت فيها عقيـدة التوحيـد، واسـتقر فيها كثـير من أعمـال الصـلاح والتقـوى، كالصـلاة والصـوم والزكـاة والحج والهجـرة والجهـاد، وكثـير من شعب الإيمان، فإذا نظرنا إلى شعب الإيمان التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسـلم: [الإيمـان بضع وسـبعون شـعبة، فأفضـلها قـول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان] (أخرجه مسلم وغيره، وانظر تخريجه في الصحيحة للألباني (1769)).

أقـول: لو نظرنا إلى شـعب الإيمـان الـتي تشـتمل بـالطبع على التوحيد والصلاة والصوم والزكاة والحج والهجـرة وغـير ذلك مما أمر الله عز وجل به من وجوه الإحسان، أقول: لو نظرنا إلى شـعب الإيمـان كلها لما وجـدنا أمة من الأمم طبقت هذه الشعب كأمة محمد صـلى الله عليه وسـلم، فما زال فيها عـبر أجيالها المتعاقبة فئـام (الفئـام هي المجموعة الكثـيرة من الناس) وأعداد كبيرة متزايدة من الناس تطبق كثيراً من شـعب الإيمـان، ولا مقارنة بينها وبين بقايا اليهود والنصارى.

ولا شك كذلك أن أمتنا قد اعتراها من الوهن ومن الضـعف، ومن الفسـاد، ومن فشو المنكـرات ما أصـاب الأمم، قبلهـا، ولكن لا مقارنة بين أنـواع الفسـاد الـتي دبت في هـذه الأمـة، وبين ما اعـترى تلك الأمم من فسـاد، فأمة موسى وأمة عيسى صــلوات الله وســلامه عليهم، لا شك أنهما من الأمم المهتدية ولكنهما انحرفتا انحرافـاً كـاملاً ولم يبق فيهما على الصـلاح قبل بعثة الرسـول صـلى الله عليه وسـلم إلا قليـل، ولا مقارنة بين تلك الأمم، وبين أمم الكفر والضـلال، فـأمم الكفر والضـلال ممن انتحلـوا آلهة غـير الله عز وجل وكـذبوا بالرسل أجمعين، وعبـدوا ما عبـدوا من أصـناف الآلهة المزعومــة.. لا شك أنه لا مقارنة بين أمم الهداية وبين أمم الضـلال والكفر، فلا مقارنة بين الصلاح الذي في هؤلاء والصلاح الذي في أولئك.

أقـول هـذا حـتى يسـتقر في نفوسـنا حقيقة أوليـة، وهي أن هـذه الأمة الإسلامية برغم ما فيها من ضعف وتفكك وانحلال إلا أنها أعظم قياماً بأمر الله تبارك وتعالى من حيث الجملة، وتنفيذاً لكثـير من شـعائر الـدين ومن شعب الإيمـان هـذه الأمة لا ينبغي بتاتا أن ينظر إليها على أنها ليست أمتنا كما يقول البعض بل هي أمتنا؛ نحن ننتمي إليهـا، ولا شك أن الحسـاب عند الله تبارك وتعالى إنما هو بالتفاضل {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} (الزلزلة:7،8).

فالإيمان درجات، والصلاح درجات، وكذلك الكفر درجات، والفسق درجات، ففي إطـار هـذه الأمـة، أولاً.. ينبغي أن نعتقد أنها أمتنـا، وأننا ننتمي إليهـا، وأنها خـير أمم الأرض بـالرغم مما فيها من علل وأمـراض وأنه لا يجـوز أن يخرج من هذه الأمة إلا من أخرجه القرآن.

أعني من كفر وارتد، وأما من ظلم وفسق وفجر فلا يخرج من هذه الأمــة، ولا شك أن الله تبارك وتعـالى يختم بالصـالحات لهـذه الأمـة، فإنه قد جـاء في حديث الشفاعة أن أهل الجنة بعد أن يجـوزوا الصـراط، يشـفعون في إخوانهم الذين سقطوا عن الصراط، فيقولـون: "ربنا إخواننا كـانوا يصـلون معنا ويصومون معنا" فيقول لهم الله تبارك وتعـالى: "اذهبـوا فمن وجـدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه" فيخرجون من النار، ثم يترددون

هكـذا، الله يقـول لهم: "اذهبـوا فمن وجـدتم في قلبه مثقـال نصف دينـار فــأخرجوه" ثم في النهاية يقــول: "فمن وجــدتم في قلبه مثقــال ذرة من إيمان فأخرجوه.." (قطعة من حديث الصراط والشفاعة أخرجه البخـاري (13/420،421 الفتح) ومسلم (183) عن أبي سعيد الخدري)

ثم بعد ذلك يقولــون: "يا ربنا لم يبق في النــار إلا من حبسه القــرآن" أي الكافر الخـارج من الملة فقـط، فـالقرآن حبس من قـال الله عز وجل في حقه.

{إن الله لا يغفر أن يشــرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشــاء} (النســاء: 48،116).

فهـؤلاء الـذين حبسـهم القـرآن، وأما من مـات لا يشـرك بالله شـيئاً دخل الجنة ولابد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: [ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة] فقال أبو ذر: يا رسول الله وإن زنى وإن سرق؟ قال: [وإن زنى وإن سـرق] قـال: وإن زنى وإن سـرق؟ قـال: [وإن زنى وإن ســرق] قــال: وإن زنى وإن ســرق؟ قــال: [وإن زنى وإن ســرق على رغم أنف أبي ذر] (أخرجه أحمد (6/447) مختصــراً، وأخرجه البخــاري (10/283 الفتح) ومســلم (1/95) عن أبي ذر)، فمن مــات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة يقول النبي صلى الله عليه وسلم في حـديث أبي هريرة رضي الله عنه: [يا أبا هريرة اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مسـتيقناً بها قلبه فبشـره بالجنـة] (أخرجه مسلم (31)).

فمن قــال لا إله إلا الله خالصــاً من قلبه لابد وأن يــدخل الجنة يومــاً من عمره، وإن عذب في الدنيا بما عذب، وإن عذب في الآخرة بما عذب حتى لو دخل النار إلا أن مصيره في النهاية إلى الجنة، فهو جزء من هذه الأمــة، حتى وإن سلف منه زنى وسـرقه، وإن سـلف منه بعض المنكـرات، وبعض الفواحش في حق الله عز وجل لكن بانتمائه إلى هـذه الأمة وبشـهادته أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله خالصاً من قلبه، فإنه في الجملة من أهل الجنة، وبالتالي هو في الجملة من هذه الأمة المرحومــة، الـتي رحمها الله عز وجل، هذه ينبغي أن تكون النظرة الأولى إلى هذه الأمــة، أنها أمتنا ما يصـيبها يصـيبنا، فلو كـان الله تبـارك وتعـالى قد من عليك بشـيء من الصلاح، وبشيء من التقوى، وبشيء من مخافته سبحانه وتعالى، فـإن من مستلزمات هذا الصلاح، ومن مستلزمات هذه التقوى، أن تشعر بأنك عضو في هذه الأمة، وأن كل مسلم يشهد بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسـول الله هو جزء من هذه الأمة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للذي قال له: اتق الله، قال: [أولست أحق أهل الأرض أن يتقي اللــه؟] قـال ثم ولى الرجل. قال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: [لا، لعله أن يكـون يصـلي] فقـال خالـد: وكم من مصل يقـول بلسـانه ما ليس في قلبه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم] (أخرجه البخاري (6/376ـ 8/67، 330-13/415 الفتح) ومسلم (1064) وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري).

فبالرغم أنهم شهدوا عليه بظاهر من ظواهر الفسق والفجور، إلا أن النـبي صلى الله عليه وسلم نهـاهم أن يحكمـوا عليه بأنه منـافق: [إني لم أؤمـر، أن أنقب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم].

انظروا إلى هذا، لنعلم أولاً أن هذه الأمة التي تشهد أن لا إله إلا اللـه، وأن محمـداً رسـول اللـه، هي أمتنا ما يصـيبها يصـيبنا، وبالتـالي ما الموقف الواجب تجاه هذه الأمة؟

الموقف الواجب للدعاة إلى الله هو البناء لا الهدم.

أقصد بالبناء أن كل فرد يقـول: لا إلا إله الله فعنـده أسـاس الـدين، عنـده الكلمة الأولى والخطـوة الأولى، وهو في داخل الـدائرة، وفـرد من أفـراد الأمة، وبالتالي.. لا يجـوز هدمه بل يجب بنـاؤه، فما كـان من نقص نحـاول استكماله، فإن كان لا يصلي فلنأمره بالصلاة قائلين: صل فإن رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة] (أخرجه أحمد (3/389) ومسلم (1/88) والترمذي (2620) والنسـائي عن جابر وقال الترمذي: حسن صحيح).

ولا يمكن أن تكـون مسـلماً على الحقيقة إلا بالصـلاة ولا حظ في الإسـلام لمن تـرك الصـلاة. وإن كـان لا يخـرج زكاته قل لـه: لا فـرق بين الزكـاة والصلاة كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (والله لأقـاتلن من فـرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال).

قل له: الصلاة فريضة واجبة، والزكاة كذلك، فإن كان هذا المسـلم ظالمـاً نمنعه عن الظلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: [أنصر أخاك ظالمـاً أو مظلوماً] فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومـاً أفـرأيت إذا كـان ظالمـاً كيف أنصـره؟ قـال: [تحجـزه أو تمنعه من الظلم، فـإن ذلك نصره] (أخرجه أحمد (3/99) والبخاري (5/98-12/323 الفتح) والترمـذي (2255) عن أنس وقال الترمذي: حسن صحيح).

إمنعه عن الظلم الذي هو فيه، سـواء كـان ظلمـاً لنفسه بـزنى أو بشـرب خمر أو بفسق أو بفجور، عليك أن تمنعه إذا كان لك ولاية عليه كأن تكـون أنت أباه أو أخـاه الأكـبر امنعه بـالقوة، إن كـان في يـدك، وإذا لم يكن لك ولاية عليه فعليك بالكلمة الحسنة، والموعظة الحسنة، عظه في هـذا، وإن كان يشرب الخمر قل له بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [من شرب الخمر في الـدنيا لم يشـربها في الآخـرة إلا أن يتـوب] (أخرجه مسـلم (4/1588) وابن ماجه (3373) عن ابن عمـــر) حـــرمت نفسك من فضل عظيم، ومن شيء عظيم، وأن من شربها في الدنيا عـذب بهـا، وأن الخمر وبال، وأنها أم الخبائث ونحو هـذا مما يرقق القلـوب، ويجعله يـدع ما فيـه، قل له أنت من أهل لا إله إلا الله وهذه كلمة عظيمة تفرض عليك واجبـات عظيمة من محبة الله ومخافته تبـارك وتعـالى والفـرار إلى الله عز وجـل، بهذه الطريقة بالدعوة إلى الله، بالحكمة والموعظة الحسنة يكون البناء.

أما الهـــــدم فإنه للأسف نشأ ممن ينظر إلى كل من عمل منكـــــراً من المنكرات أو معصـية من المعاصي أو عملاً من الأعمـال الـتي حكم النـبي صلى الله عليه وسلم على فاعلها بالكفر أو بالفسق وهو من أهل لا إله إلا

اله، ينظر إلى هذا أنه قد كفر، بل ينظر إلى عموم الأمة أنهم كفـار، وأنهم ملاحدة، وأنه يجب البراءة منهم جميعاً من أولهم لآخـرهم لا شك أن هـذه نظرة خاطئة، وأنها بداية للهدم.

فهذه الأمة التي بنيت عبر هذه القرون بنيت بجهود العلماء.

بجهود علمائها، ومجتهديها، وعبادها، وزهادها، والمحسـنين فيهـا، نـأتي إلى هذا كله فنقول: الأمة كلها خراب في خراب!! لا صالح في الأمة!!

لأن هـذه الأمة انتشـرت فيها المعاصـي، وانتشر فيها الحكم بغـير ما أنـزل الله.

أقول: لا شك أن أمتنا فيها أمراض كثيرة، وقد انتشـرت فيها بلايا عظيمـة، وقد عملت فيها عوامل الهدم طويلاً، فالفرق الباطنية الضالة، والمنافقون، والمنحرفون قد عملوا الهدم في بنيان هذه الأمة من زمن طويـل، وكـذلك غزاها أعدائها من خارجها ونالوا منها ما نالوا، ولـولا أن هـذه الأمة هي أمة اللـــه، وأن الله يـــدافع عنها لما بقي شــيء من دينهـــا، ولكن بحمد الله تواصلت أجيال الأمة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وينتمون إلى الإسـلام ويطبقون بعضاً من شرائع الدين، وواجبنا اليوم هو البناء لا الهدم والإزالة..

فالداعي مهمته في داخل الأمة الإسلامية البناء لا الهدم، فإذا وجدت نقصاً في مسلم فلا تهدمه، حاول بناءه اذهب إلى هذه اللبنة الناقصة، وحاول أن تسدها إذا قصرت في شيء فابن ولا تهدم.

هب أني مقصر أعمل جهـــدي ولكـــني قصـــرت في بعض الأمـــور ارتكبت معصية أو كبيرة بغفلتي وبجهلي وبنسياني.

ما الواجب عليك؟

الواجب عليك أن تكملني "المؤمن مرآة أخيه" واجبك أن تنصح لي.

ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: [الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصـيحة] قلنا لمن يا رسـول اللـه؟ قـال: [لله ولكتابه ولرسـوله ولأئمة المسـلمين وعـامتهم] (أخرجه أحمد (24/102-103) ومسـلم (55) وأبو داود (4944) والنسائي (4197-4198) عن تميم الداري).

فهذا هو الدين، حقيقة الدين أن تكـون مخلصـاً للـه، مخلصـاً لكتـاب اللـه، مخلصـاً لرسـوله، مخلصـاً لأئمة المسـلمين، مخلصـاً لعامة المسـلمين، ومعنى الإخلاص هو الصفاء والنقاء.

تقـول العـرب: نصـحت العسل أي صـفيته مما هو فيـه، فالنصـيحة سـلامة القلب، وإخلاص النية، فلا تحمل في قلبك غلا لمسلم، ولا حسداً ولا بغضـاً له، وإن أبغضته فبقدر معصيته فقط.

وأحبه كذلك بقدر طاعته، وبقـدر إيمانه وبقـدر قربه من اللـه، وابنك الـذي من لحمك ودمك تحبه لأنه ابنك ولكن قد تبغضه لتقصيره وبعض تصـرفاته، ولكن هـــذا البغض لا ينفي المحبـــة، لا ينفي رحمتك وحبك لـــه، تبغضه لتقصـــيره وتحبه لأنه ابنك ولأن فيه جـــوانب من جـــوانب الخـــير، وكـــذلك

المــؤمن، المــؤمن أخــوك من نفسك فقد جعل الله الأخ المســلم بمنزلة النفس كما قال تعالى: {ولا تلمزوا أنفسكم} (الحجرات:11).

أي لا تلمزوا إخوانكم، فإذا قصر فلا تهدمه ولا تدمره.

ابن فيه هذا النقص.

باختصـار الـدعاة الحقيقيـون بنـاؤون لا هـدامون ومعـنى أنهم بنـاؤون أنهم يبحثون عن مواضع الخلل، ومواضع الزلل، فيكملونها، يكملــون النقص في هذه الأمة، فإذا وقع إنسان انتشلوه، وإذا جهل علمـوه، وإذا انحـرف أدبـوه وهذبوه، ولكن للأسف يوجد من الذين يزعمون الدعوة وحـالهم كحـال من يأتي بناء قـائم فيعمل فيه الهـدم والتخـريب لمـاذا؟ لأن في البنـاء ثلمـاً أو نقصاً أو خدشاً يعملون الهدم في البناء زاعمين أنه لا بناء لا بعد اســتكمال الهدم وتدمير القائم!!

هل هذه دعوة؟

هل من الدعوة إلى الله تبارك وتعالى أن نهدم القائم الآن؟

هل من الدعوة أن نقـول: كل هـذه الأمة على ضـلال وعلى فسـاد وكل ما على الأرض تراب في تراب؟!

هل هذه دعوة إلى الله؟ بل هذا هدم وتخريب، وإنما الواجب أن نــأتي إلى هـذه الأمة فنضع الأمـور في نصـابها، الحق نشـهد له بأنه حـق، والتقصـير نحكم عليه بأنه تقصير، وأن نحاول قدر الإمكان بجهدنا إصلاح هذا الخلل.

لما هـزم المسـلمون في أحـد، وأصـيب النـبي صـلى الله عليه وسـلم بما أصيب به، واستبعد النبي صلى الله عليه وسلم أن يهدي الله الكفرة الذين فعلوا ما فعلوا وقال: [كيف يفلح قوم شـجوا وجه نـبيهم وهو يـدعوهم إلى الله] (أخرجه أحمد (3/253-288) ومسلم (1791) عن أنس).

فأنزل الله تبارك وتعالى قوله: {ليس لك من الأمر شـيء أو يتـوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون} (آل عمران:128).

فالهداية والضـلال بيد الله تبـارك وتعـالى، والشـاهد أنه لا دعـوة إلى الله صـحيحة إلا من اعتقد أن هــذه الأمة الــتي تشــهد أن لا إله إلا اللــه، وأن محمداً رسول الله هي أمتنا، وأن يكون حريصاً عليها محباً لها، وهذا الحب يتفــاوت كلما ازداد إيمانــاً يجب عليك أن تــزداد له محبة في الله تبــارك وتعالى، وهذه الأمة فيها خلل، نعم.. لا ينكر أحد أن في الأمة خللاً عظيمــاً لكن ما الواجب نحو هذا الخلل؟ إصلاح الخلل.

والمثال: أنت أمـام بناية عظيمة صـار لها (1400) سـنة بناية عظيمة جـداً بنيت بجهود جبارة، ولكن المخربين كثيرون، اللصوص والأعداء لهـذا البنـاء كثيرون، كل منهم يخرب في ناحية.

إذا جئت إلى هــذا البنــاء وأنت رجل حكيم، ما الــذي ينبغي أن تفعــل؟ إذا جئت وقلت هـذه البناية (أقصد الأمة الإسـلامية) نهـدمها كلها من جـذورها لنبني أمة من جديد! فهل أنت النبي الخاتم محمد بن عبد الله!

هل أنت النبي الجديد الذي سيبدأ من الصفر؟!

ليس هنـــاك بداية من الصـــفر، وإنما نحن قد أتينا والأمة قائمـــة، قائمة برجالها، ومفكريها، وعلمائها، ومساجدها، والذين يبذلون فيها.

هذه الأمة قائمة وفيها خير عظيم، ما واجبك إذا وجدت نقصاً؟

كمله، أما أن تخرب هذا البناء كلـه، وأن تقـول هـذه الأمة أمة ضـالة، وأمة كافرة!، وينبغي أن ننسفها من الأساس، وأن نقيم نحن الأمة الجديـدة..، لا شك أنك تكون بهذا خارجاً عن هذه الأمـة، ولا تنتمي إليهـا، لست منتمٍ إن ظننت هذا الظن.

إن ظننت أنك ينبغي أن تبدأ من الصفر، وأن كل هذه الأمة جهل في جهل، وكفر في كفر هكذا تخرج عن هذه الأمة، وهذا كفر بالله تبارك وتعـالى بل هذه الأمة قائمة، وهي خـير الأمم ولا شـك، وسـتظل خـير الأمم إلى قيـام الساعة، فيها تقصـير، وفيها جهل وفيها كفر نعم فيها كفر هـذا لا ينكر لكن ينبغي أن يصلح، والكفر درجات.. إذا كان الله قد ميز بين الكـافر الزنـديق والكـافر المجوسـي، وبين أهل الكتـاب.. اليهـود والنصـارى، وجعل لهـذا أحكـام، ولهـذا أحكـام، كـذلك معـنى هـذا أن الكفر ليس درجة واحـدة بل الكفار قد يكونوا من فصيل واحد، ولا يكونوا درجة واحدة.

هذه قريش يوم كانت كافرة وتحارب النبي صلى الله عليه وسلم، هل كان كل رجالها أمـام النـبي صـلى الله عليه وسـلم بمنزلة واحـد؟ لا، الرسـول صلى الله عليه وسـلم كـان في بعض الأحيـان يـأمر بقتل بعض النـاس ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، عن أنس أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر فلما نزعه جاءه رجل فقال له: يا رسـول الله ابن خطل متعلق بأسـتار الكعبة فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وســــــــلم: [اقتلــــــــــوه] (أخرجه مالك (423) وأحمد (3/109،164،186،231،232،240) والبخـــــاري (4/59-6/165-8/15-10/15 الفتح) ومسلم (1357) وغيرهم كثير)، وشخص آخر كان في صف الكفار موجود، الرسول صلى الله عليه وسـلم لم يـأمر بقتله كما لم يـأمر بقتل عمه العباس.

والعباس كـان كـافراً، وخـرج في صف الكفـار، لكن النـبي صـلى الله عليه وسلم عامله معاملة تختلف عن غيره.

هذا يختلف عن هذا، وهذا المطعم بن عدي أحد الكفار بعد معركة بدر ولما قتل من قتل وأسر من أسر قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: [لو كـان المطعم بن عدي حيـاً ثم كلمـني في هـؤلاء النتـنى لأطلقتهم لـه] (أخرجه أحمد (4/80) والبخـــــاري (6/243-7/323 الفتح) وأبو داود (2689) عن جبير بن مطعم).

يقـول لو كـان المطعم موجـوداً حيـاً الآن، وكلمـني في هـؤلاء السـبعين الأسرى أن أعف عنهم كنت وهبتهم له علماً أن المطعم كان كافراً ومـات كـافراً؛ ولكن كـان له موقف آخر مع النـبي صـلى الله عليه وسـلم. (هـذا الموقف واليد المذكورة هنا هو ما وقع من المطعم حين رجع النـبي صـلى

الله عليه وسلم من الطائف ودخل في جواره، وقيل المراد باليد المذكورة أنه كان من أشد من قام في نقض الصحيفة الـتي كتبتها قـريش على بـني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حصارهم في الشـعب، انظر الفتح (7/324)).

والنبي صلى الله عليه وسلم ما تـرك هـذا لـه، ما نسي هـذا قـال: لو كـان موجوداً لشرفته الآن وأعطيتهم له، ليس الكفار بمنزلة واحدة.

هذا أبو طالب عاش كافراً ومات كافراً، لكنه كـان بمنزلة أخـرى مع النـبي ما عامله النبي كغيره.

الكفار ليسوا درجة واحدة، والنظر إلى الدنيا أنها أبيض أو أسود فقـط، كل من كـــان معي هو أبيض، وكل من هو ضـــدي أســـود هـــذا ليس بصــحيح، وليست هذه سياسة شرعية، فحتى الكفـار أقسـام، والكفـار إذا كـانوا من فصـيل واحد ليســوا كلهم بحكم واحــد، ينبغي أن يعطى كل إنســان منهم الحكم الذي يستحق، هنـاك كـافر وفي قلبه رحمة على المؤمـنين، وهنـاك كـافر يريد أن يستأصل الـدين، ويبحث عنه أينما كـان حـتى يقتله ويـدمره يختلف هذا عن هذا، وكذلك هذه الأمة ليست كلها واحـدة هـذه الأمة الـتي تشـهد أن لا إله إلا اللــه، وأن محمـداً رسـول الله ليس كلهم واحــد، فيهم قريب إلى الحق، وفيهم بعيد عن الحق.

الدعاة إلى الله بناة لا أهل هدم وأهل تدمير.

أنت بانٍ في هذه الأمة ينبغي أن تبني فيها؟ أين الخطـأ؟ ينبغي أن تصــلحه بقدر الإمكان، أما أن تـأتي إلى البنـاء القـائم، وإلى الـدعوة القائمـة، وإلى الإسلام القائم، وإلى المسلمين القيام في مساجدهم وفي مدارسهم وفي عملهم وفي شغلهم وفي جهادهم ونقول: هؤلاء كفـار اهـدموا هـذا جميعـاً حتى نبني بناءً من جديد!! هذا أكبر هدم، وهذه ليست دعوة إلى الله تبارك وتعالى، بل هذا خروج من هذه الأمة وتدمير لهذه الأمة.

أذكر بهـذا وإذا غضـبت فإنما اغضب لحـق، هـذا حـق، وأي داعي إلى الله تبارك وتعالى يعلم ما قيمة الدين وما قيمة الدعوة.

ينبغي أن ينظر إلى هذا بعين الاعتبار ونظر التفكر، وأن هـذه أمتنـا، نحـزن والله لما يصـيبها حـتى من الفجـرة الفسـقة، لما يصـابوا، ونـرى اليهـود يضربونهم، أو الروس يضربونهم، أو الأحباش يضربونهم، وإن كـان بعضـهم لا يصلي، وبعضهم فسـقة نحـزن والله نتـألم وتعتصر قلوبنا لأن هـؤلاء من أمتنا، من أهل لا إله إلا الله، حتى وإن كانوا تاركين صلاة لكن عندهم لا إله إلا اللــه، هم أقــرب لنا من الكــافر الأصــلي، عنــدهم مشــاعر تختلف عن مشاعر الكفار المحاربين لنا، وكذلك نحن لا ننظر إلى الكفار نظرة واحدة، هناك كافر مسالم، وهناك كافر محارب، وهناك زنديق خارج عن هذه الأمة يريد تـدميرها، ينبغي أن نفـرق بين هـذا وذاك، والـداعي إلى الله عز وجل لابد أن يكـون حكيمـاً لا يجـوز له أن يـدعو إذا لم يكن حكيمـاً، لأن الله عز وجل يقـول: {ادع إلى سـبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسـنة وجـادلهم بـــــالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن ســـــبيله وهو أعلم بالمهتدين} (النحل:125).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على عبـده ورسـوله محمد سـيد الأولين والآخـرين الـذي بلغ الرسـالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه فصلوات الله وسلامه عليه.

إخـواني، لا طريق لفهم الـدعوة إلا بدراسة سـيرة النـبي صـلى الله عليه وسلم.

هذا النبي العظيم الكريم الـذي امتلأ قلبه بالرحمة والإشـفاق، والـذي وضع كل أمر في نصابه، خذ جانب قتال النبي صلى الله عليه وسلم للمشـركين العرب من قومه، ومن أهله، واليهود، وكل الذين ماتوا من المشـركين في حياة النبي ليسوا أكثر من خمسمائة شـخص، بـالرغم من هـذه الفتوحـات العظيمة كلها في أقل قدر ممكن انتصر النبي صلى الله عليه وسلم.

ما أراد النبي صلى الله عليه وسلم في يوم من الأيام أن يستأصل قريشـاً وهم كفار، الذي يظن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى الكفار يريد أن يستأصلهم، وأن يبيدهم عن هذه الأرض مخطئ أكبر الخطأ، بل أن النبي صلى الله عليه وسـلم كـان في كل عمله مصـراً على إخـراج هـؤلاء النـــاس مما هم فيه من جهل وغواية وكفر إلى الإيمـــان الحقيقي، موقف مشـهور كلكم تعلمونـه، موقفه صـلى الله عليه وسـلم في ذهابه إلى أهل الطائف.

"قـال محمد بن كعب القـرظي: انتهى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إلى الطـائف، وعمد إلى نفر من ثقيف وهم سـادة ثقيف وأشـرافهم وهم إخوة ثلاثة، عبد ياليل، ومسعود، وحبيب، بنو عمـرو بن عمـير بن عـوف بن عقدة بن غيرة ابن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح.

فجلس إليهم فـــدعاهم إلى الله وكلمهم لما جـــاءهم له من نصـــرته على الإسلام والقيـام معه على من خالفه من قومـه، فقـال أحـدهم: هو يمـرط (أي ينزعها ويرمي بها) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً أرسله غيرك؟ وقال الثـالث: والله لا أكلمك أبـداً لئن كنت رسـولاً من الله كما تقـول لأنت أعظم خطـراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكـــذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمـــك" (قـــال الألبـاني في تخـريج فقه السـيرة (132) أخـرج هـذه القصة ابن إسـحاق (1/260،261) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً لكن قوله: "إن أبيتم فـاكتموا علي ذلـك" وقولـه: "اللهم إليك أشـكو" الخ الــدعاء. ذكرهما بـدون سـند. أ.هـ. والقصة يشـهد لها ما رواه موسى بن عقبة عن الزهري مرسلاً، انظر البيهقي (2/414) والذهبي في السيرة (282) وهـذا مرسل صـــــحيح، وما رواه أبو نعيم (102) من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة مرسـلاً وفيه ابن لهيعة وهو ضـعيف لسـوء حفظـه، وأبو الأسود هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل وهو ثقة).

بهذا النوع من الاستهزاء والسخرية استهزئ بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: [لقد لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟! إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً] (أخرجه البخاري (6/313-13/373 الفتح) ومسلم (1795) والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (12/106).

هذا موقف للنبي صلى الله عليه وسلم لو كانت القضية قضية انتقام، يقول له (خلصني) منهم، (أزلهم) من وجه الأرض، دعني أبدأ بالفئة التي معي، لكن النبي صلى الله عليه وسلم انتظر الذرية، إذن لا استعجال في الأمر هذه رؤوس يابسة، وإذا أتى الجيل الثاني لعله يكون فيه الخير قال: [أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً].

إذن لا عجلة عند النبي صلى الله عليه وسلم؛ النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يستعجل النتائج، وما كان يستعجل أن العرب هؤلاء يؤمنوا، هذا موقف..

الموقف الثاني في السنة السادسة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى مكة معه ألف وأربعمائة شخص، يريد أن يعتمر، فمنعته قريش وقالت: "والله لا يدخلها علينا عنوة لا يدخل (محمد) علينا بالقوة أبداً، فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم واحداً واثنين وثلاثة يقول لهم ما جئنا نحارب، وإنما جئنا نعظم هذا البيت، لكن الكبرياء والأنفة القرشية منعته، وقالت يستحيل أن يدخل علينا هكذا غصباً ويعتمر، إلى أن تم صلح الحديبية..

النبي صلى الله عليه وسلم له كلمات في هذا يقول: [يا ويح قريش أكلتهم الحرب، ما ضرهم لو خلوا بيني وبين العرب، وإن ملكت فملكي ملككم، وإن تكن الأخرى فهذه التي تريدون].

يعني إن هلكت فقد استرحتم مني، النبي صلى الله عليه وسلم يريد بقاء قريش، ما كان يريد هدمها، لأنه درع الإسلام القادم، وبالفعل كانت هي درع الإسلام وسيف الإسلام، سيوف الإسلام التي فتحت الأرض من أين طلعت؟ من قريش، بعد هذا الكلام أسلم (خالد بن الوليد)، (وعمرو بن العاص)، (وعكرمة بن أبي جهل)، وأسلم الصناديد الذين فتحوا الأرض بعد ذلك.

النـبي صـلى الله عليه وسـلم له نظـرة مسـتقبلية يريد بنـاء، لا يريد هـدم الموجود، يريد لهذا الموجود أن يصلح، فيصلح الله به الأرض بعد ذلك، هذه نظرة ملؤها الرحمة، ملؤها الحكمـة، لو أراد النـبي صـلى الله عليه وسـلم غير ذلك لقال هؤلاء آذوني وطردوني من مكة وشتتوا أصحابي وعبدوا غير اللـه، وأفسـدوا في الأرض.. أهلكهم يا رب، لكن ما قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم هـذا، والنـبي صـلى الله عليه وسـلم عاهد اليهـود، وغـدروا به وفعلـوا أخس الأفعـال، كما هو ديـدنهم وطـريقتهم، لكن النـبي صـلى الله عليه وسـلم كـذلك لم يكن يريد استئصـالهم ودعـاهم بكل لطـف، وحـاول معهم بكل وسـيلة أن يؤمنـون به ويـدخلوا الـدين وعقد معهم معاهـدات وتعب معهم، وغدروا به لكن الغدر نهايته حسم، لأن الله لا يسمح أن يغـدر بالمسلم ثم يسكت على هذا الغدر، لأن معنى ذلك هذا تجريء للعدو، فلما غدر بنو قينقاع بالنبي صلى الله عليه وسلم حاصرهم ولكن جاء منافق من المنافقين فاستشفع فيهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم لأجل هذا المنافق شـفع فيهم، وسـمح لهم بـترك المدينة "بنو النضـير" كـذلك غـدروا بـالنبي صـلى الله عليه وسـلم وتمـالؤوا لقتله فحاصـرهم النـبي صـلى الله عليه وسـلم ونزلـوا على حكمه ولم يستأصـلهم، الـذين قتلهم النـبي صـلى الله عليه وسلم "بـني قريظـة" فقـط، وليس النـبي صـلى الله عليه وسـلم هو الـذي حكم فيهم، الـذي حكم فيهم هو "سـعد بن معـاذ" لأنهم نزلـوا من حصونهم، وقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وهم الذين غـدروا بـالنبي صلى الله عليه وسلم وألبـوا عليه في الخنـدق وهم الـذين حركـوا قـريش وحركـوا غطفـان، لكن لما "نـزل أهل قريظة على حكم سـعد بن معـاذ، فأرسل النبي صـلى الله عليه وسـلم إلى سـعد فـأتى على حمـار، فلما دنا من المسجد قال للأنصار: [قوموا إلى سـيدكم -أو خـيركم-] فقـال هـؤلاء، نزلـوا على حكمك فقـال: تقتل مقـاتلتهم، وتسـبي ذراريهم قـال: [قضـيت بحكم الله، وربما قال: بحكم الملك]" (أخرجه أحمد (3/22،71) والبخـاري (7/123،411-11/49 الفتح) ومسلم (1768) وأبو داود مختصراً (5215) عن أبي سعيد الخدري).

هـذا الشـيء الوحيد الـذي قبل فيه الرسـول القتل مع التمكن في اليهـود حتى في خيبر لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم خيبر في السنة السابعة ما قتلهم، كان قتال ومناوشات، وقتل منهم عدداً قليلاً ونزلوا من الحصون "فسألت اليهود رسـول الله ليقـرهم بها أن يكفـوا عملها ولهم نصف الثمر فقـال لهم رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: [نقـركم بها على ذلك ما شـئنا] فقـروا بها حـتى أجلاهم عمر إلى تيمـاء وأريحـاء" (أخرجه أحمد (2/149) والبخـاري (5/10،13-4/462، 15،21،135،322-6/252 الفتح) ومسـلم (1551) وأبو داود (3408،3409) والترمـذي (1383)، وهو عند البعض مختصر، والحديث عن ابن عمر)..

لم يستأصلهم وهو قادر، كان يقدر أن يستأصـلهم لأنها فتحت عنـوة (يعـني بالقوة)، وإذا فتح بلد ما بالقوة فالله يعطي الحرية للمسـلمين بـأن يقتلـوا المقاتلة كلهـا، لكن ما قـاتلهم النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وإنما تـركهم بوجه عـام نـرى في قتـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم الرحمة حـتى مع الكفـار، والعـدل والحكمة ووضع الأمـور في نصـابها وأنه لم يستأصـلهم

صلوات الله وسلامه عليه، لكن نجد النبي صلى الله عليه وسلم في قسم ممن أمر بقتالهم، النبي صلى الله عليه وسلم لم يقاتلهم لأنهم ما وجدوا في وقته، وجد أفراد منهم في وقته، وهو الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: "اتق الله".

هذا واحد من الأمة للأسف ومسلم ومصل وكما وصفه الصحابي الذي يروي الحديث قائلاً: فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار، ورأى أن النبي صلى الله عليه وسلم حابى البعض وترك البعض الآخر، لم يعجبه هذا التصرف، وظن أن النبي صلى الله عليه وسلم حابى البعض وترك من هو أحق، وهذا اتهام للنبي صلى الله عليه وسلم من هذا الجاهل ما مقتضاه؟

مقتضاه أن هذا النبي صلى الله عليه وسلم أولاً خائن، لأنه يفعل فعلة لا يريد به وجه الله، يرائي ثم يحابي ثم يفعل لغير الحق، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: [ويلك: أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟].

إذاً الشخص الذي اختاره الله ليكون رسول الله، وليأتمنه على الوحي يكون فيه غدر وخيانة وميل عن الحق، إذاً ليس هناك داع للرسالة!

لكن هذا لا يفهم يريد أن يعلم النبي صلى الله عليه وسلم كيف يقسم، ويعلمه كيف يعدل، طبعاً يستحق القتل لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتله، وقال له خالد بن الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: [لا].

أي أنه يقتل من يخالفه أو يأمره أو ينهاه من أولئك الذين آمنوا به ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: [إنه يخرج من ضئضي هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية] ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم كلمة هي موضع الشاهد من هذه الخطبة الثانية قال: [لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد] (أخرجه البخاري (6/376-8/67، 330-13/415 الفتح) وغيره عن أبي سعيد.

هذا الكلام يخالف السياسة التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم مع قريش ومع اليهود ويقول [لئن أدركت هذه الفئة لأقتلنهم قتل عاد] يعني [استئصال] لماذا؟

لأنه يقول: [يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان] (قطعة من حديث انظر صحيح الجامع (2227-6618).

ناس من أهل الصلاة، ومن أهل الصوم، والصحابي يحقر صلاته إلى صلاتهم، وصومه إلى صومهم وهم من أهل الصوم ومن أهل الصلاة لكنهم لا فقه لهم ولا علم لهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يخرج من الحنجرة فقط لا يخرج من القلب لأنه لا يفقهه ولا يفهمه يتكلم بالآية والحديث دون فقه لها ودون فهم لها، النبي صلى الله عليه وسلم يقول: [لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد] ويقول: [سيخرج من أمتي ناس ذلقة ألسنتهم بالقرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا لقيتموهم فإنه يؤجر قاتلهم] (أخرجه أحمد (5/36) وابن أبي عاصم في السنة (937) عن أبي بكرة

وصححه الألباني) لماذا الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على هذه الفئة؟

لأنها فئة تدميرية، فئة تريد الدعوة فتدمر، تريد أن تحرق الأخضر واليابس، وبالفعل قد أحرقت الأخضر واليابس، وحرقت كثيراً من هذه الأمة.

أفشلوا جهاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه هم الذين خرجوا من جيشه، فخرجوا عليه، وخرجوا على الأمة، وكفروا علياً بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وكفروا كل المسلمين الموجودين، وأعمدوا السيف في الجميع، وظنوا أنهم سينشؤون الأمة الحقيقية "أمة محمد" هي التي عندهم!، وأما هؤلاء جميعاً فهؤلاء ليسوا من أمة محمد، هذا عمل تدميري تماماً ناس تخرج على هذه الأمة، وتريد أن تدمر كل الموجود، هذه ليست دعوة إلى الله تبارك وتعالى، لذلك وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على قتالهم، وهؤلاء أخطر شيء، أخطر على الأمة من كل أحد، باختصار يا أخوة الدعوة إلى الله دعوة بناء كل من انتمى إلى هذه الأمة بلا إله إلا الله فهو مسلم ما دام شهد أن لا إله إلا الله فهو مسلم.

لا يجوز أن تخرجه من الدين إلا بمكفر، وإذا فعل مكفراً لابد أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، والقتل إنما هو لإمام المسلمين.

على كل حال هذا موضوع قد أطلت فيه لما له من أهمية، ومن الحكم التي ينبغي أن نعلمها أن أمة الإسلام أمتنا، وينبغي أن نتحلى معها بالصبر والحلم وطول النفس، وأن نحاول إصلاح ما أفسده المفسدون.

****

موقف الناس من المعصية

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأخوة الكرام، لا شك أن كل إنسان لا ينفك عن الذنب، قال صلى الله عليه وسلم: [كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون] (أخرجه أحمد (3/198) والترمذي (2499) وابن ماجه (4251) والحاكم (4/244) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي وقال علي لين. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (4515) عن أنس).

فقول النبي صلى الله عليه وسـلم: [كل ابن آدم خطـاء] أي أنه يتـأتى منه الخطـأ، ومصـداق ذلك في كلام الله تبـارك وتعـالى قـول الله عز وجـل: {ولله ما في السـموات وما في الأرض ليجـزي الـذين أسـاءوا بما عملـوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى الـذين يجتنبـون كبـائر الإثم والفـواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفـرة هو أعلم بكم إذ أنشـأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطـون أمهـاتكم فلا تزكـوا أنفسـكم هو أعلم بمن أتقى} (النجم: 31،32).

والشـاهد في الآية قـول الله تبـارك وتعـالى: {هو أعلم بكم}، وذلك أنه سبحانه وتعالى أخـبر أن أهل الإحسـان الـذين يتقبل الله عز وجل عملهم، وأنه بما أن له ملك السموات والأرض، فإنه يجزيهم بإحسـانهم، يقـول جل وعلا عنهم: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم}.

هـؤلاء هم أهل الإحسـان، ثم علل الله عز وجل فـبين أنهم قد يقع منهم اللمم، وذلك أن الإنسـان خلقه الله تبـارك وتعـالى، وهو أعلم بفطرته وطبعه والمادة التي خلق منها، والمكان الذي نشأ فيه، فقد خلق من طين هذه الأرض، وهو مادة هابطة قاتمة، ثم كان في أخلاط البطن، ومعلـوم ما في أخلاط البطن من التخليط ومن القـذر، وكـان هـذا منشأ الإنسـان {هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض} هذه طـبيعتكم {وإذ أنتم أجنة في بطـون أمهاتكم} هذا منشؤكم ومن أجل ذلك يصفو الإنسان ويعلو بالدين والهـدى ويسفل ويخطئ ويقع بما في طبعه وما في فطرته من السفول والقذر.

[كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون]، وقد خلقنا الله تبارك وتعالى ويعلم أننا نخطئ ولكن الله عز وجل أراد منا عند الخطيئة أن نتـوب، وأن نرجـع، وأن نسـتغفر، وهـذا يحبه الله تبـارك وتعـالى، وهو يحب العـذر من عبـاده، وعلى كل حـال، فالنـاس أو الإنس والجن بحسب الخطيئة على أصناف.

الصـنف الأول: هم أهل الإحسـان، وهـؤلاء الـذين يقعـون بـاللمم ولكنهم يذكرون الله تبارك وتعـالى، ويسـتغفرون ويسـرعون بـالعودة إلى الله عز وجل كما قـال سـبحانه وتعـالى: {خذ العفو وأمر بـالعرف وأعـرض عن الجاهلين وإما ينزعنك من الشيطان نـزغ فاسـتعذ بالله إنه سـميع عليم إن الذين اتقـوا إذا مسـهم طـائف من الشـيطان تـذكروا فـإذا هم مبصـرون} (الأعراف:199- 201).

فهـؤلاء هم أهل التقـوى يمسـهم طـائف الشـيطان، ولكن سـرعان ما يتذكرون ويرجعون إلى الله تبـارك وتعـالى، وقد وصف الله أهل الإحسـان في آية أخـرى، فقـال: {وسـارعوا إلى مغفـرة من ربكم وجنة عرضـها السـموات والأرض أعـدت للمتقين الـذين ينفقـون في السـراء والضـراء والكاظمين الغيظ والعـافين عن النـاس والله يحب المحسـنين والـذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاسـتغفروا لـذنوبهم ومن يغفر الـذنوب إلا الله ولم يصـروا على ما فعلـوا وهم يعلمـون أولئك جـزاؤهم مغفـرة من ربهم وجنـات تجـرب من تحتها الأنهـار خالـدين فيها ونعم أجر العاملين} (آل عمران:133-136).

فوصف الله هؤلاء بأنهم أهل الإحسان، وأنهم كـذلك العـاملون بما أمر الله تبارك وتعالى، وما فرضه عليهم، إذاً أول صنف من البشر محبوب عند الله تبارك وتعالى، هذا الصنف هو الصـنف الـذي يخطئ ويلم، ثم يعـود سـريعاً إلى الله تبارك وتعالى.

يعــود بالتوبة والاســتغفار والإنابة والخــروج من الــذنب وهــؤلاء هم أهل الإحسان، وهـؤلاء هم الـذين يحبهم الله تبـارك وتعـالى، ويرتضـيهم، وليس من لا يقع منهم خطـأ، لأنه لا يتصـور من إنسـان ألا يقع منه خطأ هـذا غـير متصور وغير ممكن، ولا يكون، وإنما المفروض والمتصور هذا، ولذلك قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: [لو لم تـذنبوا لـذهب الله بكم ولجـاء بقـوم يـذنبون فيسـتغفرون الله فيغفر لهم] (أخرجه مسـلم (2749) في كتـاب التوبة من حديث أبي هريرة وأوله: [والذي نفسي بيده لو لم..].

وذلك أن الله تبـارك وتعـالى يحب العـذر، يحب أن يعتـذر إليه العبـاد، وأن يرجعوا، وأن يستغفروه، وأما من يتصور أنه لا يقع منه إلا الطاعـة، فإنه قد يصيبه العجب والكبر، وقد يظن أن له دالة على الله سـبحانه وتعـالى، وأن له فضل عليه، وأن له حق محقق على اللـه، وهـذا لا شك أن تصـوره إثم، يعـني تصـور هـذا في ذاته إثم، لأن الله تبـارك وتعـالى هو صـاحب الفضل كله، وهو صاحب العطاء كله، والعبـاد لا شك أنهم في موضع الخطـأ، وفي موضع التقصــير، وفي موضع العيب، وأما الــرب تبــارك وتعــالى، فهو المتفضل حتى على أشرف عباده، فهذا نبينا صلوات الله وسـلامه عليه قد ذكـره تبـارك وتعـالى بفضـله العظيم عليه كما قـال سـبحانه وتعـالى: {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقـدم من ذنبك وما تـأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً} (الفتح:1،2).

وقـال: {ألم نشـرح لك صـدرك ووضـعنا عنك وزرك الـذي انقض ظهـرك ورفعنا لك ذكرك} (الشرح:1-4).

وقال: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً} (الإسراء:74،75).

إلى آيـات كثـيرة من كتـاب الله تبـارك وتعـالى يـذكره الله عز وجل نعمته عليـه، وفضـله وإحسـانه إليـه، وأنه ما وصل إلى ما وصل إليه من الهـدى، والتقى إلا بفضل الله تبارك وتعالى ورحمته، ولذلك كـان النـبي يـذكر هـذا دائماً ويقول: [لن يدخل أحداً منكم عمله الجنـة] قـالوا: ولا أنت يا رسـول الله؟ قال: [ولا أنا إلا أن يتغمـدني الله منه بفضل ورحمـة] (رواه مسـلم (2816) في كتاب صفات المنـافقين وأحكـامهم عن أبي هريـرة) فالفضل كله لله تبارك وتعالى.

الشــاهد أن أول صــنف من البشر في مــوقفهم من المعصــية هم هــؤلاء التوابــون، الرجــاعون إلى الله تبــارك وتعــالى المســتغفرون، وهــؤلاء ممدوحون عند الله عز وجل، وهم أفضل الطوائف وأفضل الفرق.

الصنف الثاني: وهم المتمادون السادرون اللاهـون، وهـؤلاء مـذمومون في كتاب الله تبارك وتعـالى، كما قـال جل وعلا: {إن الـذين اتقـوا إذا مسـهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون} (الأعراف:201).

هؤلاء هم أهل الإحسان.

قال: {وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون} (الأعراف:202).

{وإخوانهم} إخوان الشياطين {يمدونهم} يعني يمدهم الشياطين {في الغي}، يسترسلون معهم، كلما دعاه الشيطان إلى فساد يطيعه ويسير معه {ثم لا يقصرون} يعني لا يقطعون خط المعصية، ويعودون إلى الله تبارك وتعالى، وإنما يتمادون وهؤلاء المتمادون هم على شفا هلكة، إن لم تدركهم رحمة الله تبارك وتعالى، بالتوبة قبل الموت، فقد هلكوا، وقد يصلون إلى الله تبارك وتعالى تقعدهم وتلزمهم النار أحقاباً وأحقاباً، فإن كانوا من أهل لا إله إلا الله خرجوا من النار، ونفعتهم لا إله إلا الله يوماً من عمرهم، وأما إن كانوا من غير ذلك، فهم مخلدون في النار عياذاً بالله، ولذلك قال سبحانه وتعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً} (النساء:17).

ولا شك أن كل فاعل للسوء جاهل، لأنه لو كان عالماً على الحقيقة لاستحى من الله ولخاف الله تبارك وتعالى {ثم يتوبون من قريب} قبل الموت، كل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، كما قال صلى الله عليه وسلم: [إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر] (أخرجه أحمد (2/132) والترمذي (3537) وابن ماجة (2/1420) والحاكم (4/257) عن ابن عمر وقال الترمذي: حسن غريب وحسنه الألباني في صحيح الجامع).

ما لم تبلغ روحه الحلقوم. فالتوبة مفتوحة بابها موجود وباق، فالسادر الغافل عن طاعة الله تبارك وتعالى السائر في معاصيه يخشى عليه أن يفاجئه الموت، وهو على معصيته عياذاً بالله، ولا شك أن من مات على شيء بعث عليه، فمن مات حاجاً بعث ملبياً، ومن مات مجاهداً بعث على جهاده وفي دمه، ومن مات على سكره وفسقه وفجوره بعث على ذلك، بعث على ما مات عليه، فالحذر الحذر أن يفاجئك الموت وأنت على معصية الله تبارك وتعالى، ولذلك كان أهل البصيرة يتمسكون بالإسلام حتى يموتوا، لأنه لا يدري متى يفاجأه الموت وقد قال صلى الله عليه وسلم: [الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك] (أخرجه أحمد (1/387،413) والبخاري (11/321 الفتح) عن ابن مسعود).

وذلك أن من مات على حاله بعث عليها عياذاً بالله، فمن مات وآخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة، ومن مات على سكر أو زنا أو فاحشة كان كذلك أخذ بما مات عليه {كل نفس بما كسبت رهينة} (المدثر:38).

الصنف الثالث: فهو المتكبر العنيد الألد الخصم هذا يفعل المعصية، ولا يرعوي، وإذا ذكر بالله تبارك وتعالى اشمأزت نفسه، وشمخت أنفه بمعصيته، وهذا قد وصفه الله تبارك وتعالى بأخس الصفات في كتابه، ووصفه النبي بأخس الصفات كذلك.

يقول الله تبارك وتعالى: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض

ليفسد فيها ويهلك الحــرث والنسل والله لا يحب الفســاد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد} (البقرة:204- 206).

هذا صـنف المتكـبر المتعجـرف الـذي إذا ذكر بأنه على معصـية لله تبـارك وتعالى وقيل له اتق الله ودع ما أنت فيه من المعصية شــمخت أنفه وأنف أن يذكر بالله تبارك وتعالى، وقد يقـول للقائل له أنا أعلم بالله منك وأتقى لله منك، ومن أنت حـتى تـذكرني باللـه، وتقـول لي كـذا وكـذا، وقد يتكلم كلاماً طيباً في الـدين ولكنه مجـادل خصم لـدود {ومن النـاس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا} قيـل: قوله في الـدنيا يعـني قوله في الـدين يعـني يتكلم كلاماً طيباً في الـدين كما هو وصف المنـافقين، وصـفهم الله تبـارك وتعالى: {وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة} (المنافقون:4).

تسمع لقولهم لأنهم يقولون كلاماً حسناً كما قال تبارك وتعالى: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله} (المنافقون:1).

هذا كلام حسن شهادة حسنة، قال تبارك وتعالى: {والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون اتخـذوا أيمـانهم جنة فصـدوا عن سـبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون} (المنافقون:2،1).

ثم وصفهم الله تبارك وتعـالى: {وإن يقولـوا تسـمع لقـولهم كـأنهم خشب مسـندة يحسـبون كل صـيحة عليهم هم العـدو فاحـذرهم قـاتلهم الله أنى يؤفكون} (المنافقون:4).

فهذا الصـنف المنـافق الـذي قد يتكلم في الـدين بكلام حسـن، ولكن قلبه مليء بالغيظ والحقد على المســلمين، ولــذلك إذا ذكر بأفعاله في الفتنة وفي الكـذب وفي البهتـان وفي التمـالؤ على أهل الإسـلام، وفي التفريق بينهم إذا ذكر بهـذا أخذته العـزة بـالإثم كما قـال صـلى الله عليه وسـلم: [أبغض الرجـــال إلى الله الألد الخصــم] (أخرجه أحمد (6/55،63،205) والبخاري (13/180 الفتح) ومسلم (2268) عن عائشة).

الألد: من اللدد وهي شدة الكراهية والخصومة.

الخصم: يعني كثير الخصومة وهذا كما وصف النبي المنافقين: [وإذا خاصم فجـر] (مقطع من حـديث أخرجه البخـاري (1/89-5/107) ومسـلم (58) عن عبدالله بن عمرو).

فـإذا خاصـمك فجر وكـذب عليك وافـترى عليك واسـتعان عليك بشـهود الباطل، ولم يراع فيك إلا ولا ذمة ولم يراع أنه موقوف بين يدي الله تبارك وتعالى وسيسأله عن عمله فهذا الذي تأخـذه العـزة بالمعصـية والإثم، وإذا ذكر بالله تبارك وتعالى لم يذكر، هو من شرار الخلق حتى وإن تكلم كلامـاً حسناً لكنه عند الله تبارك وتعالى من شرار الخلق، لأنه الألد الخصم وهذه خصلة من خصال النفاق، كما قال صلى الله عليه وسلم: [أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر] (المصدر السابق).

فالفاجر في خصومته، المتعدي في كل الحـدود، الـذي يفـرح بإثمـه، ويزيد فيه وإذا ذكر بالله لا يـذكر، هـذه خصـلة من خصـال النفـاق، قد تكـون في مـؤمن، ولكنها خصـلة سـيئة، وقد يمـوت بإثمه ومعصـيته، عيـاذاً بالله وقد يتوب من هذا.

على كل حال هذا صنف من الناس وهذا موقفهم إزاء المعصية.

الصنف الرابع: والأخير هو أخس هذه الأصناف كلها، وهو المستحل المتكبر أخو الشـيطان، أخو إبليس الـذي يسـتحل معصـيته، ويـرى أن ما يفعله هو الحق، وأن ما يؤمر به من الـدين هو الباطـل، فكم فـاجر كـافر ينسب إلى الإسلام، ويفعل المعاصي، فإذا ذكر بمعصيته اسـتحلها، فـيرى أنه ليس في الزنا شيء وليس في شرب الخمر شيء، وأن ترك الصلاة لا إثم فيه، فهو مستحل لما هو عليه، وأقول هـذا هو أخو إبليس لأن إبليس أمر بالسـجود، فلم يسجد، قـال له عز وجـل: {اسـجد لآدم} ولكنه لم يسـجد ثم لما ذكر {قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيـدي أسـتكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه} (ص:75،76).

فبرر عدم سجوده بأن السجود ينافي الحكمـة، وينـافي العقـل، فـاتهم الله تبارك وتعالى بأنه لم يأمر بمقتضى الحكمة، وأن مقتضى الحكمة ألا يسجد الفاضل للمفضول، فزعم نفسه أفضل من آدم، فكيف يسـجد له ويكرمـه، وهو أعلى منه وأشرف، ولم يعلم هذا المفتـون، ومن على شـاكلته أن أمر تبارك وتعالى هو مقتضى الحكمة لأن الله هو الحكيم سبحانه وتعـالى، وأن أمر الله عز وجل يجب على الخلق أن يطيعوه سـواء فهمـوا الحكمة منـه، والمـراد منـه، أو لم يفهمـوا فلا شك أن الله تبـارك وتعـالى يعلم، وأنتم لا تعلمون، فكم من تابع لإبليس منسوب إلى أهل الإسـلام يظن أنه من أهل الإسلام، ولكنه يأخذ الدين بعقله، فما وافق هـواه فعله وما لم يوافق عقله وفهمه تركه بل قد يزدري هـذا الأمـر، ولا يظن هـذا المـأفون المغبـون أنه بهذا قد رد كلام الله تبـارك وتعـالى ورد كلام النـبي ولا شك أن الـراد على الله، والراد على رسول الله كافر ولا شك هذا هو القسم الرابع وهو أسـوأ هذه الأقسام.

الخلاصة مرة ثانية أقـول كل ابن آدم خطـاء كلنا نخطئ حـتى الرسل هـذا أبوهم آدم قال تبارك وتعالى: {وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبـاه ربه فتـاب عليه وهدي} (طه:121،122).

ليعلمنا الله تبارك وتعالى أن أبانا الـذي خلقه بيـده، ولكنه أمر ألا يأكل من شجرة معينة في الجنة فأكل منها نسياناً كما قـال جل وعلا: {ولقد عهـدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً} (طه:115).

لكن علمنا الله تبـارك وتعـالى أيضـاً بالمقـام الـذي قامه آدم كيف نتـوب ونرجع إلى الله تبارك وتعالى: {فتلقى آدم من ربه كلمـات فتـاب عليه إنه هو التواب الرحيم} (البقرة:37).

وهـذه الكلمـات هي ما نص الله عز وجل عليها أنه قـال هو وزوجـه: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسـرين} (الأعـراف: 23).

فلما قـــــالا ربنا ظلمنا أنفســــنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكـــــونن من الخاسرين، تاب الله تبارك وتعـالى عليهما وقبل دعائهمـا، وهكـذا ينبغي أن يكون كل عبد إذا وقع فيما يسخط الله تبارك وتعالى، أو عصى الله تبـارك وتعالى في أمر جهلاً أو نسياناً أو بغلبة هوى فإن عليه أن يسـارع بـالعودة وبالرجوع إلى الله تبارك وتعالى، وبالندم على فعلـه، وبـالخروج من ذنبـه، ثم بعد ذلك أن يصلح في بقية عمره، وأن يتذكر هذا الإثم أبداً قـال تبـارك وتعالى: {إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين} (هود:114).

وقال صلى الله عليه وسـلم: [واتبع السـيئة الحسـنة تمحها وخـالق النـاس بخلق حسن] (حسن وهو قطعة من حديث يبـدأ بلفظ [اتق الله حيثما كنت واتبع..] أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما انظر صحيح الجامع).

فاتبـاع السـيئة بالحسـنة محو لها فعلينا بالتوبة وبـالرجوع إلى الله تبـارك وتعالى، فـإذا أذنبت ذنبـاً فعليك بالتوبة والرجـوع إلى الله والإنابة إليـه، ثم بالطاعـة، ومن أحسن الطاعة الـتي تغفر الـذنب الصـدقة كما قـال النـبي صـلوات الله وسـلامه عليـه: [والصـدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ المـاء النار] (حسن وهو قطعة من حديث كعب بن عجرة أخرجه الترمذي (614) وحسنه، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي (501)).

والصلاة ولا شك أنها من أعظم ما يقرب العبد إلى الله تبارك وتعـالى، كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: [أقـرب ما يكـون العبد من ربه وهو ساجد] (أخرجه أحمد (2/421) ومسلم (482) وأبو داود (875) والنسـائي (572) عن أبي هريرة).

ولنحذر يا أخوة، التمادي لأنك لا تدري متى يأتيك الموت، ثم لنحـذر الكـبر، وأن تأخـذنا العـزة بالمعصـية، وأننا إذا ذكرنا بالله تبـارك وتعـالى لم نـذكر، وأنه إذا قيل لنا اتق الله تأخـذنا الأنفة والكبريـاء ممن يقـول لنا اتق اللـه، ومن نحن لقد قال الله تبارك وتعالى لنبيه: {يا أيها النـبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً} (الأحزاب:1).

فإذا كان النـبي محمد صـلوات الله وسـلامه عليه يقـال له اتق الله تبـارك وتعالى فكيف بنا نحن، فإذا قال لك عبد من عبـاد اللـه: اتق الله قل آمنت بالله تبارك وتعالى وارجع إليه تبارك وتعـالى أما المسـتحل المعصـية فمن استحل معصية ولو كانت صغيرة فلا شك أنه كـافر خـارج من ملة الإسـلام أسـأل الله تبـارك وتعـالى أن يردنا إليه رداً جميلاً وأسـتغفر الله لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه.

****

الظلم ظلمات يوم القيامة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شـرور أنفسـنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضـلل فلا هـادي لـه، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك له وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخـير الهـدي هـدي محمد صـلى الله عليه وســلم، وشر الأمــور محــدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضــلالة وكل ضلالة في النار.

وبعد:

إخواني الكرام ثبت من قول النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قـال: [الظلم ظلمــات يــوم القيامــة] (أخرجه أحمد (2/137،156) والبخــاري (5/100 الفتح) وفي الأدب المفرد (485) ومسلم (2579) عن ابن عمر).

وقد جاء الإسلام بالعدل كما قـال سـبحانه وتعـالى: {إن الله يـأمر بالعـدل والإحسـان وإيتـاء ذي القـربى وينهى عن الفحشـاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون} (النحل:90).

والظلم والبغي واحد وهو ضد العــدل، وقد تطلق العــرب الظلم على وضع الشيء في غير محله، وقد جاء معـنى هـذا في الشـرك كما قـال سـبحانه وتعالى: {إن الشرك لظلم عظيم} (لقمان:13).

وذلك أنه وضع للشيء في غير محله، وقد كان الشرك ظلمــاً عظيمــاً لأنه وضع للعبادة الـتي هي أشـرف الأعمـال في غـير محلها لغـير الله سـبحانه وتعالى، فلا يستحق العبادة إلا الله جل وعلا، فالتسبيح والتقديس والسجود والركوع والذبح والنذر والخوف والخشية وسـائر أنـواع العبـادة من أعمـال القلوب أو أعمال الجوارح لا تنبغي إلا للإله الواحد سبحانه وتعـالى الـذي لا إله غيره ولا رب سواه، فكل من صـرف نوعـاً من هـذه الأنــواع لغـير الله تبارك وتعالى فقد وضع العبادة في غير محلها، ولذلك كـان الشــرك أعظم الظلم، وقد فسر به النبي صلى الله عليه وسلم قـول الله تبـارك وتعـالى: {الـذين آمنـوا ولم يلبسـوا إيمـانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتـدون} (الأنعام:82). قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وســلم أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: إنه ليس بـذاك، ألا تسـمع قـول لقمـان لابنـه: {إن الشـرك لظلم عظيم} (أخرجه البخـاري (8/513 الفتح) وغيره عن عبدالله بن مسعود).

هذا لا شك هو أعلى أنواع الظلم، ولكن يـدخل في هـذا المعـنى العـام كل اعتداء على حق الآخرين، وكل ما هو ضد العدل، فمن أخذ مالك بغــير حق أو سـفك دمك بغـير حق أو اعتـدى على عرضك بغـير حق فلا شك أنه قد ظلمـك، وهـذا من معـاني الظلم، وهو معـنى قـول النـبي صـلى الله عليه وسلم: [الظلم ظلمات يوم القيامة].

ولا شك أن كل من ظلم فهو محاسب بين يدي الله تبارك وتعالى، والظلم بين العبــاد درجــات، فمن أعظم الظلم القتــل، قتل المســلم من أعظم العدوان، ولـذلك أوجب الله تبـارك وتعـالى النـار على قتل المـؤمن عمـداً وظلماً كما قـال الله تبـارك وتعـالى: {ومن يقتل مؤمنـاً متعمـداً فجـزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عـذاباً عظيمـاً} (النسـاء: 93).

وذلك أنه أعظم عـدوان، ولا شك أنه يتـدرج العـدوان بعد ذلك نـزولاً حـتى تكون مجرد الكلمة والغمزة واللمزة في حق المـؤمن ظلم إذا كـانت بغـير حق فهي ظلم، ولا شك أن كل من ظلم ظلمة فإنه لا تـــزول قدمه يـــوم القيامة حتى يؤديها، وإن كـان من أهل الإيمـان ومن أهل الصـلاح كما قـال النبي صلى الله عليه وسلم: [أتدرون ما المفلس؟] قـالوا: المفلس فينا ما لا درهم له ولا متـاع، [إن المفلس من أمـتي من يـأتي يـوم القيامة بصـلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مـال هـذا، وسـفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهـذا من حسـناته، فـإن فـنيت حسـناته قبل أن يقضي ما عليـه، أخذ من خطايـاهم، فطـرحت عليـه، ثم طـــرح في النـــار] (أخرجه أحمد (2/303،334،372) ومســـلم (2581) والترمذي (2418) عن أبي هريرة وقال الترمذي: حسن صحيح).

وقد أذن الله تبارك وتعـالى وشـاء أن يقيم العـدل يـوم القيامة على أكمل وجوهـه، حـتى إنه يقتص للعجمـاوات بعضـها من بعض وليس للبشر فقط كما قال صلى الله عليه وسلم: [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء] (أخرجه أحمد (2/235،/310،411) ومسلم (2582) والترمذي (2420) عن أبي هريرة وقال الترمـذي: حسن صحيح).

والجلحاء: الشاة التي لا قرون لها.

والقرناء: التي لها قرون.

ومعـنى يقتص لها يعـني يؤخذ القصـاص إذا نطحتها بغـير حق فإنه يقتص وكـذلك يقتص لهـا، ويؤخذ حق الحيـوان كما قـال صـلى الله عليه وسـلم: [عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وســـقتها إذ حبســـتها ولا هي تركتها تأكل من خشـــاش الأرض] (أخرجه البخاري (5/41-6/356،515) وفي الأدب المفرد (379) ومسلم (2242) عن ابن عمر).

فهذه امرأة دخلت النار في ظلم هـرة قطة لما ظلمتها كـان مصـيرها إلى النار، وهذا يدل على أن الظلم هو إيقـاع غـير العـدل حـتى على الحيـوان، وحتى على النبات كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: [قـاطع السـدر يصـــوب الله رأسه في النـــار] (أخرجه الـــبيهقي (6/141) عن معاوية بن حيدة، وحسنه الألباني في الصحيحة (615)).

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم العدوان على شـجرة نافعة بـدون حـق، ليست سادة للطريق وليس هناك مصلحة من قطعها، وإنما لمجـــرد الظلم والعدوان والعبث فإن صاحبها يقول النبي صـلى الله عليه وسـلم: [صـوب الله رأسه في النار].

هذا كله من معاني الظلم ومن معاني قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: [الظلم ظلمات يوم القيامة].

قلنا بأن أعلى درجات، الظلم ظلم المؤمن بسـفك دمـه، ثم ما دون ذلـك، وكذلك ظلم الأرض، وهو أن تأخذ أرض أخيك بغـير وجه حـق، ولـذلك قـال

النبي صلى الله عليه وسلم: [من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين] (أخرجه أحمد (1/187،190) والبخاري (5/103 الفتح) ومسلم (1610) والترمذي (1418) وفي رواية: [من سرق الأرض..] وكذلك: [من أخذ شبراً من الأرض..].

ومعنى طوقه: يعني أنه يقطع له هذا الجزء الـذي اغتصـبه ظلمـاً من أرض أخيه تصـبح طوقـاً على رقبته عيـاذاً بالله إلى سـبع أرضـين يـوم القيامـة، يعني جيء به يوم القيامة وهو يحمل مظلمته، ولذلك كان ظلم الأرض من أعظم الظلم، وحذر النبي من هذا بل لعن النبي صلى الله عليه وسلم من غـير منـار الأرض، كما جـاء في حـديث مسـلم: [لعن الله من لعن والـده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من غير منار الأرض] (أخرجه أحمد (1/108،118،152) ومسـلم (1978) والنسـائي (4422) والبخـاري في الأدب المفرد (17) عن علي بن أبي طالب).

ومنـار الأرض: حـدودها، فمن غـير حـدود الأرض بمعـنى أنه رفع الحـدود، والعلامات التي توضع وأخذ جزءاً من حق جـاره فهـذا ملعـون على لسـان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن هذا من الظلم.

ولا شك أن أخذ أموال الناس، وجلد أبشارهم أو سبهم أو حبسهم بغير حق ظلم، وهذا يستوي فيه من له ولاية، ومن ليس له ولاية، بل الـذي له ولاية هو أشد جرماً عند الله تبارك وتعالى، ومن له ولاية يعـني من ولاه الله عز وجل ولاية المسـلمين فلا شك أنه إذا ظلمهم كـان أعظم وزراً عند الله تبـارك وتعـالى إذا جلد أبشـارهم، أو أخذ أمـوالهم، أو اغتصب أراضـيهم أو ظلمهم أي شـيء بغـير حـق، لا شك أنه مسـؤول على ذلك بين يـدي الله تبارك وتعالى، ولا شك أن هذه مسؤولية لا يقـدرها إلا من علمهـا، وأما من يجهلها فإنه قد يفرح بظلمـه، أما من يعلمهـا، فإنه يقـدرها حق قـدرها كما قيل لعمر بن الخطـاب رضي الله عنه وهو على سـرير المـوت قيل له يا أمـير المؤمـنين: أبشر فلقد صـحبت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وأحسنت صحبته ومات يوم مات وهو راض عنك ثم صـحبت خليفة رسـول الله يعـني أبا بكر فأحسـنت صـحبته فمـات يـوم مـات وهو راض عنك ثم صـحبت صـحابتهم يعـني من صـحبوا النـبي ومن صـحبوا أبا بكر فأحسـنت صحبتهم فلئن كان المـوت -هـذا كلام ابن عبـاس لعمر بن الخطـاب رضي الله عنه- لتموتن والأمة راضية عنك فلما سمع عمر بن الخطـاب هـذا من قـول ابن عبـاس وهو الفقيه رضي الله عنهمـا، قـال: اجلسـوني وكـان قد طعن فأجلسوه فقال: لئن قلت ما قلت من أني صحبت رسول الله فمات يـوم مـات وهو راض عـني، إنما ذاك من فضل الله ومنـه، ثم إني صـحبت خليفة رسول الله فمات يوم مات وهو راض عـني، إنما ذلك من فضل الله ومنه، ثم أني صحبت صحابتهم وأني يوم أموت أمـوت وهم راضـون عـني، فـأقول هــذا من فضل الله ومنــه، وإنما يجزعــني مخـافتي عليك وعلى أصحابك -يعني مخافته على الأمة- ثم قال: وددت لو أن هذا كـان كفافـاً لا لي ولا علي وهذا موضع الشاهد يقول: "وددت لو أن هذا كان كفافـاً لا لي ولا علي".

يعني أتمنى على الله تبارك وتعالى أن أكون ما أديته من أمانة، وما حملته، وما أبليت من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم وصحبة أبي بكر وصحبة المسلمين كفافاً لا لي ولا علي.

يعني لا شيء لي عند الله، ولا علي شيء أطالب به، ثم قال: "والله لئن عثرت بغلة بالعراق ليسألن عنها عمر يوم القيامة".

يقول إن المسئولية جسيمة، وإنني إن فرطت في شيء مما وليته سيسألني الله تبارك وتعالى عنه يوم القيامة، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الإمارة: [إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها] (أخرجه مسلم (1825) عن أبي ذر ويبدأ لفظ الحديث: [يا أبا ذر إنك ضعيف..]).

وقال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: [نعمت المرضعة، وبئست الفاطمة] (قطعة من حديث أخرجه أحمد (2/448،467) والبخاري (13/125 الفتح) والنسائي (4211،5385) عن أبي هريرة).

الأمارة قال: [نعمت المرضعة].

يعني أنها ترضع، ثديها مليء بالحليب، فالإمارة تمكن من يملكها من أموال الناس ومن أبشارهم ومن دمائهم وتملكه من المال ولكن: [بئست الفاطمة] يعني إذا فطم بالموت ثم أتى بعد ذلك لكشف الحساب فبئس الأمر لأنه سيحاسب على كل شيء.

الشاهد من كل هذا أن الظلم ظلمات يوم القيامة أياً كان، ومن أي كان، ولا شك أنه من ذي الولاية أعظم عند الله تبارك وتعالى لمكانته ومنزلته وتمكنه، ولذلك لم تكن النهبة كالغصب علماً أنها كلها أخذ للمال لكن المنتهب غير الغاصب لأنه الغاصب لا يغصب إلا وهو يقدر أما المنتهب جبان يسرق ويهرب، هذا الجبان الذي يسرق ويهرب، لا شك أن جريمته أقل من المغتصب لأن المغتصب متمكن يستطيع أن يأخذ مالك وهو في مكنته، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً ولذلك قال النبي: [من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين].

وذلك أن الأرض تغتصب، ولا تنهب لأنه لا يقدر أن يسرق ويهرب بها إنما لا يفعلها إلا من هو قادر على ذلك..

فالشاهد من كل هذا أنه لا شك أن ذا الولاية من ولاه الله تبارك وتعالى ولاية من الولايات، لا شك أن ذنبه أعظم ممن لم يكن صاحب ولاية، كل هذا يبين أن الظلم لا شك أنه ظلمات يوم القيامة ولذلك كان الإمام العادل من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، لأنه مع قدرته يمتنع كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل..] (أخرجه أحمد (2/439) والبخاري (12/112-11/312 الفتح) ومسلم (1031) والنسائي (5380) عن أبي هريرة).

فبدأ به صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنه مع تمكنه يعدل بل إن العادلين هم من أقرب الناس من الرحمن يوم القيامة، كما قال النبي صلى الله

عليه وسلم: [إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا] (أخرجه أحمد (2/160) ومسلم (1827) والنسائي (5379) عن عبدالله بن عمرو).

فالمقسط هو العادل الذي يقوم بالقسط، والقسط هو العدل، ويخبر النبي بأنهم على منابر من نـور يـوم القيامة عن يمين الـرحمن يـوم القيامـة، ثم فسر النـبي المقسـطين فقـال: هم الـذين يعـدلون في أهلهم وذويهم وما ولوا، يعني وما ولاهم الله تبارك وتعالى.

فالعــدل ضد الظلم، والمســلم لا شك أن شــأنه أن يكــون عــادلاً، كما أن الكـــافر من شـــأنه الظلم كما قـــال تبـــارك وتعـــالى: {والكـــافرون هم الظالمون..} (البقرة:254).

وذلك أن الكـافر لا شك أولاً أنه ظلم نفسه بشـركه بالله تبـارك وتعـالى، وعبادته غير الله، ووضعه للعبادة في غير محلها، وهذا أعظم أنواع الظلم.

كما قــال صــلى الله عليه وســلم لما ســأله عبد الله بن مســعود قلت يا رسول أي الذنب أعظم؟ قال: [أن تجعل لله نداً وهو خلقك].

هذا أعظم ظلم لأنه لا ند لله ولا كفؤ له سبحانه وتعالى.

قال: قلت ثم أي: قال: [أن تزاني حليلة جارك].

وهذا كذلك من الظلم من ظلم الجار ومن الخيانة.

قـال: قلت ثم أي: قـال: [أن تقتل ولـدك مخافة أن يطعم معـك] (أخرجه أحمد (1/380،431،434،462،464) والبخـــــــــــــــــــــــــــاري (13/503-8/163،492،10/433،12/114،187 الفتح) ومســلم (86) وأبو داود (2310) والترمــذي (3182) من طــرق عن أبي وائل عن عمــرو بن شرحبيل عن ابن مسعود).

قتل الولد، وهو عدوان كـذلك ولا شك أنه من أعظم الظلم لأن هـذه نفس مخلوقة خلقها الله تبـارك وتعـالى، ثم لا شك أن الـذي خلقها ضـمن رزقها كما قال تبارك وتعـالى: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها} (هود:6).

فالله تبــارك وتعــالى ما خلق دابة إلا خلق لها رزقهــا، ولكن يــأتي الجــوع والفقر من الظلم لولا أن الناس لم يتظالموا، ما بقي جائع ولا عريـان، وإلا فإن الله تبارك وتعـالى خلق من الأرزاق ومن النعم في هـذه الأرض وذخر فيها ما هو فائض. فالأصل هو الفيض وليس الندرة كما يقـول كفـار علمـاء الاقتصاد يقولون: الأصل في الاقتصاد هو الندرة، وهـذا باطل بل الأصل هو الــوفرة ولا شك أن الله تبـارك وتعـال خلق من الأرزاق، ومن النعم ما هو موفور لخلقه، ولكن إنما تأتي المجاعة بالتظالم وبالظلم، وأن يأخذ الأغنياء غير ما يستحقون، وأن يحرموا الفقـراء من حقـوقهم، فالتظـالم والتقـاطع والتــدابر وقطع الطريق والفتن والبلاء هو الــذي يقع بســببه هــذا النقص، فالشاهد أن الإسلام جاء بالعدل وأمر الله تبارك وتعالى بأن نكون عادلين، ونهانا عن الظلم، وأخبر سبحانه وتعالى بأنه ولو مثقال ذرة لا بد أن يســأل

عنها العبد يـوم القيامة كما قـال تبـارك وتعـالى: {فمن يعمل مثقـال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} (الزلزلة:8،7).

ولا شك أن الظلم من أعظم الشرور.

أقـول هـذا لأن الـداء الـذي حل بالأمة إنما هو داء العـدوان والظلم، كل إنسان يقـدر للأسف أن يظلم إلا من شـاء اللـه، وإلا من خـاف الله تبـارك وتعالى، ثم لا شك أن الظلم من طبائع النفـوس، ولـذلك كـان أول أخـوين في الأرض ظلم أحدهما الآخر مع اتساع هذه الأرض، يعني الإنســان يعجب أن أحد ابــني آدم، أخــوان لا يوجد في الأرض غيرهما لا بشر غــيرهم هم وأبوهم، أبوهم آدم سواءً وقعت هذه الحادثة بعد مـوت آدم أو في حياته ما كان في الأرض غيرهم ومع ذلك تظالموا، ولذلك قـال الله عز وجـل: {من أجل ذلك كتبنا على بـني إسـرائيل أنه من قتل نفسـاً بغـير نفس أو فسـاد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً} (المائدة:32).

من أجل ذلك يعني من أجل أن الأخ يقتل أخاه إذا قدر عليه كما قال تبارك وتعالى: {واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذا قربا قرباناً فتقبل من أحـدهما ولم يتقبل من الآخر قــــال لأقتلنك قــــال إنما يتقبل الله من المتقين} (المائدة:27).

الأمر هذا ليس من فعلي، كون أن الله عز وجل يتقبل مـني ولا يتقبل منك هذا من فعل الله عز وجل لم تحاسبني على فعل الله عز وجل {قـال إنما يتقبل الله من المتقين}، يعني اتقيت الله عز وجـل، فتقبل قربـاني، وأنت لم تتق الله تبــارك وتعــالى فلم يتقبل قربانــك، فلم القتل حســداً وبغيــاً وظلماً لذلك.

قــال الله عز وجــل: {فطــوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصــبح من الخاسرين} (المائدة:30).

أصـبح من الخاسـرين لأنه قتل نفسـاً عـدواناً وظلمـاً، ثم قـال الله تبـارك وتعالى بعد ذلك: {من أجل ذلك..}.

يعني من أجل هـذا الأمـر، وهو أن الأخ والشـقيق ممكن أن يقتل أخـاه إذا قدر عليه {كتبنا على بني إسرائيل} أي في التشـريع: {أنه من قتل نفسـاً بغير نفس}.

يعني قتل نفساً بغير نفس بغير قصاص {أو فساد في الأرض}.

أي قتل فساداً في الأرض، فالمفسد في الأرض يقتل، وقتله حق.

المفسد بقطع طريق أو بعدوان على إمام حق، فلا شك أن هذا مفسد في الأرض، وهو الحد الذي يسميه الفقهاء بحد الحرابة، هذا إفســاد في الأرض {أنه من قتل نفس أو فســاد في الأرض فكأنما قتل النــاس جميعــاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً}.

فالشاهد الظلم من شيم النفوس، ولذلك جاء الإسلام بالرادع.

الرادع الأول: التقوى:

أن الإنسان يتقي ربه تبارك وتعالى، ويعلم أنه مطلع عليه وأنه لن يمر إذا مررت في الدنيا لا تمر في الآخرة قد تمر في الدنيا بغصبك بنهبك بقتلك ممكن أن تمر وتبقى معززاً مكرماً في سربك إلى أن تموت لكن لا تمر ستحاسب على هذا وستؤديه رغماً عنك، لابد أن تؤديه فلذلك كان أول وازع هو الخوف من الله تبارك وتعالى تقوى الله عز وجل والمعرفة، إن كل إنسان مسؤول بين يدي الله هذا أعظم وازع وهو الذي يمنع الإنسان من الظلم.

الوازع الثاني: السلطان: الذي وضعه الله تبارك وتعالى أو أنزله الله عز وجل هو السلطان والسيف فالسلطان وازع، ولذلك ينصب الإمام في المسلمين ليردع الظالم، ولذلك كانت أول خطبة لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: "القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه والضعيف منكم قوي عند حتى آخذ الحق له".

هذا واجب السلطان أو هذا من كلام عمر بن الخطاب سواء كان هذا أو هذا.

هذا من واجبات السلطان أنه ينصب لردع الظلمة، ولمنع الظلم، ولإقامة العدل بين الناس، ولذلك أول ما يسأله الله تبارك وتعالى هل أقام العدل في الرعية أم لا، لكن المصيبة كل المصيبة إذا كان السلطان نفسه هو الجائر، وهو الظالم، هذه تصبح هي الكارثة هو الذي يظلم، فإذا كان يطلب منه ويرجى منه ردع الظلمة، إذا كان هو ظالماً من يردعه؟ وعلى كل حال، قد أمر الله تبارك وتعالى وأمر النبي بالصبر على ظلم الإمام، وذلك أنه قد يكون القيام في وجهه يؤدي إلى مظالم أكبر من هذا، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: [إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها] قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: [أدوا إليهم حقهم وسلوا الله الذي لكم] (أخرجه أحمد (1/384،386،387،433) والبخاري (13/5-6/612 الفتح) ومسلم (1843) والترمذي (2190) عن ابن مسعود، وقال الترمذي: حسن صحيح).

يعني أن الله سبحانه وتعالى سيسألهم عن رعيتهم، التي استرعاهم إياها وسيأخذ الحق منهم ولا شك هذا على كل حال فيما لم يأت من وراء تبديله، ما هو أشد ضرراً على المسلمين منه ولا شك أنه مطلوب من الأمة، أن تقوم بالعدل لا يقام إلا بهذين الأمرين كما ذكرنا.

الأمر الأول: أن تكون هناك تقوى لله تبارك وتعالى، وأن ينشر معنى تقوى الله تبارك وتعالى ومخافة الله عز وجل.

الأمر الثاني: ثم لابد أن يقوم السيف والتشريع الذي يحمي الضعيف، ويأخذ الحق من القوي، أما إذا وجد في المجتمع من ينصر الظالم ويبقى الضعيف بلا ظهر يستطيع أن يأخذ حقه، فلا شك أنه ينتشر الظلم ويعم ويطم، ولا شك أن الظلم مؤذن بخراب العمران، هذه قاعدة من القواعد كما أخبر الله تبارك وتعالى في كل الآيات التي أخبر أنه أهلك القرى فيها أنه لا يهلكها إلا بظلم أهلها، إذا ظلم أهلها فإن الله تبارك وتعالى يهلكها

كما قـال تبـارك وتعـالى: {وما كنا مهلكي القـرى إلا وأهلها ظـالمون} (القصص:59).

هذه قاعـدة عامة {وما كنا مهلكي القـرى} يعـني المـدن والأمم إلا وأهلها ظالمون، وهنا وأهلها ظالمون هذه جملة حالية يعني حال كون ظلم أهلهـا، أما إذا أقاموا العدل فيما بينهم فإن الله تبارك وتعالى قد يمد في أعمارهم حتى لو كانوا كفاراً وأقاموا العدل، فإن هذا لمد أعمارهم ولذلك قال إمـام علم الاجتمـاع عبد الـرحمن بن خلـدون: "الظلم مـؤذن بخـراب العمـران" وهذا الكلام من كلامه لكنه مأخوذ من هذه الآيات ومن هذه السنن الجارية لله تبارك وتعالى في خلقه، وكذلك قال شيخ الإسـلام ابن تيميـة: "إن الله تبارك وتعالى قد يؤيد الدولة العادلة وإن كانت كافرة".

حتى وإن كانت كافرة لكنها إذا أقامت العدل أيدها الله تبـارك وتعـالى، أما الدولة المسلمة إذا تظالم أهلها، ولم يؤخذ الحق لضعيفهم وقوي ظالمهم، فـإن هـذا لا شك أنه منـذر بخـراب عمـرانهم وفسـاد أحـوالهم واضـطراب أمورهم، فالأمم لا تقام إلا بالعدل، إذا قـام العـدل قـام سـوق البقـاء، وأيد الله تبارك وتعالى الدولة أما إذا قام الظلم فلا شك أن هذا مـؤذن بخـراب عمرانهم.

على كل حال لابد أن يتنادى المسـلمون في كل مكـان في أرض الإسـلام، وفي غـير أرض الإسـلام أن يكونـوا عـادلين، وأن يبتعـدوا عن كل الظلم، وأعظم الظلم كما ذكرنا الشـرك بالله تبـارك وتعـالى، ثم عن ظلم أي شـيء، إيـاك وظلم أي شـيء، واعلم أن الله سـائلك أن تظلم شـجرة، أن تظلم هرة، ثم بعد ذلك لا شك أنه أعظم من هذا أن تظلم أخاك المسلم.

أسأل الله تبارك وتعـالى أن يجمع بين قلوبنـا، وأن يؤلف بيننـا، وأن يهـدينا سبل السلام.

****

أي الذنب أعظم؟

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شـرور أنفسـنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضـلل فلا هـادي لـه، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك لـه، وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخـير الهـدي هـدي محمد صـلى الله عليه وسلم، وشر الأمـور محـدثاتها، وكل محدثة بدعـة، وكل بدعة ضـلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

ففي الصـحيح عن ابن مسـعود رضي الله تعـالى عنه أنه قـال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: [أن تجعل لله نداً وهو خلقك] قلت: ثم

أي؟ قال: [أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معـك] قلت: ثم أي؟ قـال: [أن تزاني حليلة جارك] (تقدم تخريجه).

هذا الحديث سأل فيه ابن مسـعود رضي الله تعـالى عنه النـبي صـلى الله عليه وسلم عن الذنب الأعظم أو الذنوب الكبيرة، وكـان الصـحابة رضـوان الله عليهم يسألون النبي صـلى الله عليه وسـلم عن الخـير ليفعلـوه، وعن الشر ليجتنبوه أما معرفة كبائر الذنوب، فإنه واجب على كل مسـلم، وذلك أن الله تبـارك وتعـالى قد جعل الرحمة والنجـاة في الآخـرة لمن ابتعد عن الكبـائر وإن عمل الصـغائر، فـإن هـذا قد يغفر إذا تـرك الكبـائر كما قـال سـبحانه وتعـالى: {إن تجتنبـوا كبـائر ما تنهـون عنه نكفر عنكم سـيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً} (النساء:31).

{إن تجتنبـوا كبـائر ما تنهـون عنـه} يعـني الـذنوب العظيمة الكبـيرة الـتي ينهــاكم الله تبــارك وتعــالى عنها {نكفر عنكم ســيئاتكم} يعــني ذنــوبكم الصغيرة نكفرها إذا تركت الكبائر.

كذلك جاء قول الله تبارك وتعالى: {ولله ما في الســموات وما في الأرض ليجزي الـذين أسـاءوا بما عملـوا ويجـزي الـذين أحسـنوا بالحسـنى الـذين يجتنبـون كبـائر الإثم والفـواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفـرة هو أعلم بكم إذ أنشــأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطــون أمهــاتكم فلا تزكــوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى} (النجم:31،32).

ففي هذه الآية بين الله تبارك وتعالى أن أهل الإيمان، بل أهل الإحسان إذا اجتنبـوا كبـائر ما نهـاهم الله تبـارك وتعـالى عنـه، فـإن الله عز وجل يكفر عنهم اللمم، وقد فسر اللمم بأنه أن يلم المؤمن بالمعصية، ثم يدعها يعني أن يشارفها أو يقاربها، أو اللمم الذنوب الصغيرة، التي جمعها المسـلم من هنا وهنــاك، فإنها تكفــر، وقد جــاءت الأحــاديث الكثــيرة، أن الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، إذا اجتنبت الكبـائر ورمضـان إلى رمضـان كفـارة لما بينهمــا، إذا اجتنبت الكبــائر، وكل هــذا فيه دليل على أن الكبــائر لها حسـاب خـاص والصـغائر لها حسـاب خـاص، فالصـغائر تغتفر إذا اجتنبت الكبائر، وكذلك الصغائر تغتفر بالصلاة، وبالصيام وبأعمـال الـبر، وخاصة إذا كانت الأعمال بالبر هذه متواصلة من جمعة إلى جمعـة، ومن رمضـان إلى رمضان ومن حج إلى حج، ومن عمرة إلى عمرة، ونحو ذلك.

إذاً السؤال عن الكبائر لأن لها حساب خاص لابد لها من توبة وإقلاع ولا بد لها من نية خاصة، ليتجاوزها المسلم لذلك كان الصحابة يسألون النبي عن الكبـائر، وقد جـاء في بعض الأحـاديث أنها سـبع لما قـال النـبي: [اجتنبـوا السبع الموبقات] (أخرجه البخـاري (12/181،10/232،5/393) ومسـلم (89) وأبو داود (2874) والنسائي (3678))، لكن هذه السـبع في الحقيقة لا تجمع كل الكبائر، بدليل هذا الحديث الـذي نحن بصـدده وهو حـديث ابن مسـعود فقد ذكر فيه أشــياء ليست من تلك الســبع، وهو الزنا نعــود إلى الحديث يقـول ابن مسـعود: سـألت النـبي أي الـذنب أعظم؟ فقـال النـبي صلى الله عليه وسلم: [أن تجعل لله نداً وهو خلقك].

الند: الشبيه والنظير والمثيل والعـدل بمعـنى العـادل، ولا شك أنه لم يوجد في البشر من قال إن هناك لله تبارك وتعالى شبيه في كل الجهـات، وفي الأوصاف وفي كل الوجوه لله تبارك وتعالى.

يعني لم يأت من قال إن هنـاك إلهين اثـنين متسـاويين في كل الوجـوه ما جاء هذا إلا عن بعض المجوس الذين اعتقدوا أن هنـاك إلهـاً خالقـاً للخـير، وإلهاً آخر متكافئاً معه في القوة خالق للشـر، وأن بينهما صـراعاً وتكـافؤاً في القوة غير هؤلاء ما عُلِمَ من البشر قال إن هناك إلهين اثنين متساويين من كل وجه وإنما الـذي حصل من الشـرك في البشر أنهم جعلـوا بعض المخلوقـات، وبعض معبـوداتهم تشـابه الله من بعض الوجـوه أو من بعض الحقوق أو في بعض الواجبات، وهـذا هو عينه اتخـاذ الند كما قـال سـبحانه وتعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الـذي خلقكم والـذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنـزل من السـماء مـاء فـأخرج به من الثمـرات رزقـاً لكم فلا تجعلـوا لله أنـداداً وأنتم تعلمـون} (البقرة:21،22).

فبين سبحانه أولاً أنه دعا الناس جميعاً إلى عبادته وحده لا شـريك لـه، ثم بين لهم أنه هو الخـالق، فهو الـذي خلقهم والـذين من قبلهم، وهو الـذي أنزل الماء من السماء وأنبت هـذه الجنـات ورزق عبـاده بما رزق سـبحانه وتعـالى، وبالتـالي فإنه لا يشـابهه أحد مما يُعْبد من دون الله فـأي شـخص اتخذ مع الله إلهـاً لا شك أنه لا يـزعم لإلهه هـذا أنه خـالق أو رازق أنه هو الذي خلقه أو رزقه أو خلق أباه أو خلق أمه لم يوجد هـذا في الحقيقة في البشر من يقول إن هنـاك خالقـاً مع الله تبـارك وتعـالى، لـذلك قـال: {فلا تجعلوا لله أنداداً}.

كيف يجعل الإنسان لله نداً؟

ابن عباس رضي الله تعالى عنه فسر أن الوجه من وجوه اتخاذ الأنـداد هو أن تنسب الفضل إلى غير الله، وهذه نسبة يعني شيئاً قليلاً جداً، يعني هذا وجه خفي جداً من وجوه الندية أن تقول: لـولا البط لسـرق اللصـوص بيتنا البارحة.

الشـاهد من هـذا أن معـنى أن يتخذ بعض البشر لله نـداً إنما هو في بعض الوجـوه، وليس بالضـرورة في كل الوجـوه من ذلك مثلاً، حق الله تبـارك وتعالى على عباده أن يعبدوه وحده لا شـريك له هـذا حق الله على العبـاد كما جاء في حديث معاذ بن جبل قال له النـبي صـلى الله عليه وسـلم: [يا معـاذ هل تـدري ما حق الله على العبـاد؟] قـال: قلت الله ورسـوله أعلم، قال: [حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً].

فهذا حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له.

والعبادة اسم لكل ما يحبه الله من الأعمال الـتي اختص بها نفسه سـبحانه وتعالى، أعني أمر البشر بأن يخصه وحده بها كالسـجود والركـوع والصـلاة والدعاء والـذبح والنـذر والخشـية والإنابة وكل هـذا عليه أو له من الكتـاب

والسنة أنه لا يجوز أن تصـرف فـرع من فـروع هـذه العبـادة إلا لله تبـارك وتعالى.

المحبة الكاملة، الخشية الكاملة، الإنابة الكاملة له، التقوى أن يتقى وحــده سـبحانه وتعـالى، كـذلك أن يسـجد له وحـده، أن يركع له وحـده، سـبحانه وتعالى، ألا يطاف إلا ببيته، ألا يذبح إلا له، ألا ينذر إلا له، كل أنــواع العبـادة والتقرب التي شـرعها الله عز وجل ليعظم البشر ربهم بهـا، هـذه لا يجـوز أن يصرفها إنسان لغير الله تبارك وتعالى، ومن صرف شيئاً من ذلك لغــير الله فقد اتخذ نداً من دون الله، أياً كان هذا المصـروف إليه حجـر، شـجر، ملك، وثن أياً كان، وعلى أي صلة كان، فكل من صـرف شـيئاً من العبـادة الـــتي اختص الله عز وجل بها نفسه بمعـــنى أنه أمر أن يعظم بها وحــــده سـبحانه وتعـالى، ولا يعظم بها غـيره، فهو مشـرك بالله تبـارك وتعـالى، والحال أن هـذا الـذي يعبد من دون اللـه، لا يمكن أن يكـون كالله سـبحانه وتعالى في الخلق، كذلك قال النـبي هنا لعبدالله بن مسـعود [أن تجعل لله نداً وهو خلقك] يعني والحـال أنه خلقـك، وليس هنـاك من إله خلـق، ليس هناك من إله يعبد من دون الله تبارك وتعالى زعم عَبَدتُه أنه خلق، فالــذين عبدوا الشمس مثلاً ما قالوا إنها تخلـق، أو الـذين عبـدوا القمـر، أو الـذين عبدوا الملائكة، أو الذين عبدوا غير الله أياً كان هذا الغير ما قـالوا إنه خلق مع الله تبارك وتعالى، إلا ما كان من النصـارى قبحهم الله الـذين قـالوا إن عيسى إله كامل، وإنسان كامل أي أنه خـالق ورازق ومصـور وبـارئ، وفيه كل صفات الأب في زعمهم تعالى الله عز وجل عما يقولـون علـواً كبـيراً، والله تبـــارك وتعـــالى هو الواحد الأحد الـــذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فالشاهد أن من عبد غير الله تبارك وتعالى بـأي صـورة من صـور العبـادة، فقد اتخذ نداً له مع الله تبـارك وتعـالى، هـذه صـورة من اتخـاذ الأنـداد مع الله.

صورة ثانية الندية في التشـريع، التشـريع حق للـه، ونعـني بالتشـريع الأمر والنهي وذلك أن الله تبـارك وتعـالى هو خـالق العبـاد، وهو الـذي يـأمرهم، وينهاهم سبحانه وتعالى هو الذي يحل لهم ويحرم عليهم هو الذي يحق لــه، وهـذا من حقه أن يقـول هـذا افعلـوه، وهـذا اتركـوه، وليس لأحد غـير الله تبارك وتعالى، أن يأمر وينهى قط، إلا بما يأمر به الله تبارك وتعـالى وينهى عنه الله عز وجل.

ولذلك قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: [لا طاعة لمخلـوق في معصـية الخــالق] (أخرجه أحمد (4/432،5/66) والحــاكم (3/443) وقــال صــحيح الإسناد ووافقه الذهبي).

ولذلك كل من أطاع مخلوقاً فيما يعصي به الله تبـارك وتعـالى معتقـداً أن هذا المخلـوق له حق الأمر والنهي فهو مشـرك بالله تبـارك وتعـالى خـارج من دين الله عز وجل بـــدليل قـــول الله عز وجـــل: {ألم تر إلى الـــذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريـدون أن يتحـاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفـروا به ويريد الشـيطان أن يضـلهم ضـلالاً بعيداً} (النساء:60).

فســمَّى الله تبــارك وتعــالى من يتحــاكموا إلى غــيره كأنما تحــاكموا إلى الطاغوت وإلى غير نبيه صلوات الله وسلامه عليه، ثم قال في ختــام هــذه الآيات، وهذه الآيــات لها ســبب في الــنزول قــال في ختامهــا: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجــاً مما قضيت ويسلموا تسليماً} (النساء:65).

ولا شك أن الآيـــات الكثـــيرة والأدلة الواضـــحة تؤكد أن حق الأمر والنهي والتشريع إنما هو لله تبارك وتعالى.

كما قـــال جل وعلا: {وأن احكم بينهم بما أنـــزل الله ولا تتبع أهـــواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصــيبهم ببعض ذنــوبهم وإن كثــيراً من النــاس لفاســقون أفحكم الجاهلية يبغــون ومن أحسن من الله حكمــاً لقــوم يوقنــون} (المائــدة: 49،50).

إذاً كل من اتخذ مطاعاً وسيداً يطيعه فيما يعصي به الله تبارك وتعالى أي يأمره بما هو معصية لله فيطيعه، وينهاه عما هو طاعة لله فيطيعه، لا شك أنه قد اتخذ هذا المتبوع والسيد والآمر، والناهي، اتخــذه إلهــاً من دون الله تارك وتعالى، ومعنى هذا أنه اتخذ نداً من دون الله عز وجل، وهذا ولا شك من أعظم الذنوب، بل هذا من الذنوب التي لا تكفر مهما كان للإنسان من حســنات كما قــال جل وعلا: {إن الله لا يغفر أن يشــرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} (النساء:48،116).

هذه أوجه ممن اتخذ مع الله نداً، ومن هؤلاء من يزعم لأحد غير الله أن له صفة تشبه صفة الله تبارك وتعالى، أو اسم يشبه اسم الله تبارك وتعــالى، فالله تبارك وتعالى متفرد بأسمائه وصفاته جل وعلا، فمن اعتقد أن هنــاك من يتصف بصفة من صفات الله يعلم كعلم اللــه، أو يســمع كســمع الله أو يبصر كبصر الله، أو له شيء من حقــوق الله الــتي ليست لأحد إلا هو كــأن يملك الشفاعة فلا يملك الشفاعة إلا الله تبارك وتعالى كما قــال جل وعلا: {قل لله الشفاعة جميعاً} (الزمر:44).

فلا للشفاعة مع الله سبحانه وتعــالى، ولا يشــفع أحد عند الله إلا بــإذن الله للشافع، وبــإذن الله للمشــفوع فيــه، فالله وحــده هو الــذي يحل ذلك كلــه، كذلك لا يُدخل الجنة إلا الله، ولا يُخرج من النار إلا اللــه، هــذا حقه ســبحانه وتعــالى، فمن زعم أن لأحد قــدرة، أو جاهــاً عند الله أن يــدخل من شــاء الجنة، أو يخرج من شاء النــار فهو كــافر بالله تبــارك وتعــالى متخذ له نــداً يعبــده من دون الله عز وجــل، بل لا يملك أحد لنفسه نفعــاً ولا ضــراً إلا بمشــيئة الله عز وجل لا ملك مقــرب ولا نــبي مرســل، لا يملك ملك لنفسه خير ولا ضر، إلا بإذن الله، ولا نبي مرسل مهما كان هذا النبي يملك لنفسه فضلاً، عن غيره خيراً أو ضراً، إلا بــإذن الله تبــارك وتعــالى، فالله عز وجل هو الذي بيده الأمر كله، وله الملك كله، كما قــال جل وعلا: {تبــارك الــذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير} (الملك:1).

فالملك كله لله عز وجل ملك الآخـــرة، وملك الـــدنيا كله بيد الله تبـــارك وتعالى ولا يعطى منه أحداً إلا بمشيئته سبحانه وتعــالى، فالشــاهد من هــذا

أن من اتخذ مع الله تبارك وتعالى، أي اعتقد أن حقاً خاصاً لله عز وجل بأن هناك من البشر أو من الملائكة من له مثل هذا الحق فهذا لا شك أنه قد اتخذ لله نداً، ولا شك أن للشر صوراً متعددة لم أحصها في هذه الخطبة القصيرة، ولكني حسبي التنبيه عليها والدلالة لها تنبيهاً وشرحاً وتعريفاً بهذا الحديث العظيم حديث عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- أي الذنب أعظم قال: [أن تجعل لله نداً وهو خلقك] قلت: ثم أي قال له النبي صلى الله عليه وسلم: [أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك].

فالقتل لا شك أنه من أعظم الجرائم بعد الشرك بالله تبارك وتعالى، وقد عظم الله تبارك وتعالى أمره كما قال جل وعلا: {من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً} (المائدة:32).

فقتل نفس واحدة كقتل كل الأنفس إثمها عند الله تبارك وتعالى، ولا شك أن هذا أمر عظيم جداً، العدوان على النفس المعصومة يزداد بأمور: من ذلك مثلاً، ما نص النبي صلى الله عليه وسلم عليه في الحديث نص على صورة من صور القتل، هي من أفظعها وأشنعها أن يقتل الأب ابنه، ويقتله لا للذنب وإنما مخافة أن يشركه في الرزق، وفحش هذا الأمر وفجوره وكونه بالغ ما بلغ من الظلم بأمور:

أولاً: أن هذا الابن لا يستطيع الدفاع عن نفسه، طفل لا يقدر أن يدافع عن نفسه.

ثانياً: أنه في مكان الرحمة والمفروض أن الأب يكون في مقام الرحمة، فإذا كان في مقام القسوة وغلظ القلب يكون هذا أعظم وأكبر.

الأمر الثالث: أنه لا ذنب لهذا المقتول، كما قال سبحانه وتعالى: {وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت} (التكوير:8،9) لا ذنب له وهذه أيضاً جريمة ثالثة تجعل هذه الجريمة جريمة ومركبة كذلك لأنه لا ذنب له.

الأمر الرابع: أنه خشي من أمر لا دخل له فيه، وهو الرزق علماً أن هذا الذي يقتل ابنه حتى لا يطعم معه هو نفسه المرزوق عند الله تبارك وتعالى، أعني أن الله هو يرزقه، كما قال تبارك وتعالى: {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم} (الإسراء:31).

يعني أن هذا الرزق، إنما هو للذرية كما هو للآباء، وفي الآية الأخرى: {ولا تقتلوا أولادكم من إملاق} (الأنعام:151).

فلا شك أن الله تبارك وتعالى هو رازق الآباء والذرية، فهذا كله بيد الله تبارك وتعالى، ثم أن تعتدي على هذا المخلوق وهذه النفس المصونة فتقتلها خشية رزق الله سبحانه وتعالى، هو الذي يفعله وهو الذي يقدره، ولا شك أنها جريمة مركبة هذا الذي يجعلها عظيمة، ولا شك أن قتل النفس المعصومة، جريمة كما ذكرنا ولكنه يتعاظم بحسب هذه النفس فهذه أعظمها أن يقتل الأب ابنه في هذا، ثم كذلك من أعظمها قتل النفس الشريفة المحترمة كقتل الأنبياء وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، وقد لعن الله تبارك وتعالى اليهود وشردهم في الأرض، وأوقع

فيهم ما أوقع بقتلهم الأنبياء، كما قال تبـارك وتعـالى: {وبكفـرهم وقـولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مـريم رسـول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم} (النساء:156،157).

أي تبجحهم بهذا.

وقال تبارك وتعالى: {ويقتلون الأنبياء بغير حق} (آل عمران:122).

وقال: {ويقتلون النبيين بغير الحق} (البقرة:61).

فقتل الأنبياء لا شك أنه من أعظم الذنوب، وأضاف الله تبارك وتعـالى إلى هذا الذين يقتلون من يأمر بالقسط من الناس كما قال تبارك وتعالى: {إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الـذين يـأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم أولئك الذين حبطت أعمـالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين} (آل عمران:21،22).

فالعدوان على النفس الشريفة العظيمة الآمرة بـالحق كالأنبيـاء ومن على شاكلة الأنبيـاء من الـدعاة إلى الهـدى من أعظم الـذنوب ومن أكبرها عند الله تبارك وتعالى، ثم يلي ذلك قتل المؤمن أي مؤمن حتى لو كـان مؤمنـاً في نفسه ليس من الدعاة إلى الله تبارك وتعـالى، وقد أوجب الله الخلـود في النـار لقاتل المـؤمن كما قـال سـبحانه وتعـالى: {ومن يقتل مؤمنـاً متعمـداً فجـزاؤه جهنم خالـداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عـذاباً عظيماً} (النساء:93).

هـذا في قتل المـؤمن أي مـؤمن كـان، وهو يشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فبمجرد ما يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسول الله فقد عصم الله دمه.

أما النفـوس الـتي أبـاح الله قتلهـا، أو أوجب قتلها فهي ليست معصـومة الدم، من هذه النفوس: الكافر المحارب للإسـلام، فهـذا قد أوجب الله عز وجل على المسـلمين قتاله كما قـال صـلى الله عليه وسـلم: [أمـرت أن أقاتل الناس حتى يشـهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسـول اللـه، فـإذا قالوها عصـموا مـني دمـاءهم وأمـوالهم إلا بحقها وحسـابهم على اللـه] (حـديث متـــواتر ورد عن جمع من الصـــحابة انظر تخريجه في الصـــحيحة (407-410).

فالكافر المعلن لكفره المحارب للإسلام نفسه غير معصومة، كذلك المرتد المسلم الذي ارتد عن دينه وكفر كفراً بيناً لا عصـمة لدمه كما قـال صـلى الله عليه وسـلم: [لا يحل دم امـرئ مسـلم يشـهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتـارك لدينه المفـارق للجماعـة] (أخرجه أحمد (1/382،428،444،465) والبخـاري (12/201 الفتح) ومسـلم (1676) وأبو داود (4352) والنسـائي (4721) وابن ماجة (2534) عن ابن مسعود).

إذا كان ثيباً أي سبق له زواج وزنا، فهذا يرجم يسـتحل دمـه، ويـرجم حـداً من حدود الله تبارك وتعالى، {والنفس بالنفس} يعني من قتل نفسـاً فقد أهـدر دمه وأهـدر دمه قصاصـاً ثم قـال النـبي [والتـارك لدينه المفـارق

للجماعـة] فالتـارك لدينه المفـارق للجماعة أبـاح الله تبـارك وتعـالى دمه بتركه لـدين كما قـال صـلى الله عليه وسـلم: [من بـدل دينه فـاقتلوه] (أخرجه أحمد (1/282) والبخـــــاري (6/149،12/267 الفتح) وأبو داود (4351) والنسـائي (4059،4062،4064،4065) والترمـذي (1458) وابن ماجة (2535) عن ابن عباس).

فالشاهد أن الله تبارك وتعالى لم يبح الدم إلا بأسباب، منها: كفر أو فسـاد في الأرض كما قـال جل وعلا: {من أجل ذلـك} أي من أجل أن الأخ يقتل أخاه إذا قدر عليه، وهذه الآية من سورة المائدة بعد أن قص الله عز وجل قصة ابني آدم، وكيف أن أحدهما قتل أخاه في غير ما بأس ظلماً وعـدواناً فقـال الله عز وجـل: {من أجل ذلك كتبنا على بـني إسـرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس} (المائدة:32) قتل نفساً بغير نفس، أي بغير قصاص {أو فسـاد في الأرض} أي بغـير إفسـاد في الأرض، فالمفسد في الأرض يقتل لذلك قال جل وعلا: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسـوله ويسـعون في الأرض فساداً أن يقتلوا} (المائدة:33).

فالمفسد في الأرض كالقائم على إمام الحق، والقاطع للطريق، ونحو ذلك من الإفساد في الأرض هذا يقتل كما قال تبارك وتعالى: {إنما جزاء الـذين يحاربون الله ورسوله ويسـعون في الأرض فسـاداً أن يقتلـوا أو يصـلبوا أو تقطع أيــديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفــوا من الأرض ذلك لهم خــزي في الـدنيا ولهم في الآخـرة عـذاب عظيم إلا الـذين تـابوا من قبل أن تقـدروا عليهم} (المائدة:33).

الشاهد أن النفس معصومة الدم وأرجو أن أكـون بهـذا البيـان المـوجز قد بينت من هو الذي تعصم دمـه، هو المـؤمن الـذي لم يـرتكب ما يحل هـدر دمه، وكذلك النفس الكافرة المستأمنة، كل كافر مستأمن معصوم الـدم لا يجوز أن يعتدى عليه.

نعود إلى الحديث.. قول النبي صلوات الله وسلامه عليه: [وأن تقتل ولـدك مخافة أن يطعم معك].

كان هذا من أعظم الذنوب لأنه قتـل، فـالنفس البشـرية الأسـاس أنها من روح الله تبـارك وتعـالى أي أنها نفخة من المَلَك بـأمر الله تبـارك وتعـالى لذلك ينبغي أن تصـان حـتى وهي في البطن قبل أن تولد لها صـيانة ينبغي أن تُصان وألا يعتـدى عليها لأن العـدوان عليها من أعظم الـذنوب، ثم قـال النبي صلى الله عليه وسلم: [أن تزاني حليلة جارك].

وقول النبي: [تزاني] يدل على المفاعلة وأنه أمر مستمر فأصــبح الزنا من أعظم الذنوب.

أولاً: يعني فحشه هنا أولاً الزنا في ذاته فحش، لكنه قد يزداد إثمه وفحشه بـأمور تضـاف إلى ذلـك، منها المعـاودة والاسـتمرار، وهـذا حاصل هنا [أن تـزاني]، ثم أن يكـون على ذي حرمــة، فالعـدوان على الأم مثلاً أو الأخت ليس كالعدوان على الأجنبية وهذا أمر ثان.

كذلك زوجة الجار، الجار له حـق، فالعـدوان عليه أمر كبـير، فكـذلك يعظم الزنا بالعدوان على نساء المجاهدين.

فالشاهد أن الزنا فحش في أساسه وفي ذاته ولو كان مـرة واحـدة، ولكنه لا شك أنه يعظم بــأمور: فهو من الكبــير أعظم من الصــغير أي الشــيخ الزاني أكبر إثمـاً عند الله تبـارك وتعـالى من الشـاب الـزاني كما جـاء في الحديث: [ثلاثة لا يكلمهم الله يـوم القيامة ولا يـزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مسـتكبر] (أخرجه مسـلم (107) والنسائي (2575) عن أبي هريرة).

وذلك أن الشيخ المفروض فيه أن يعود إلى الله تبارك وتعـالى، وأن يتـوب إليه فهو كبــير لا تدفعه الحاجة ولا الغريــزة إلى أن يفعل مثل هــذا الفعل الفـاحش، أما الشـاب، فإنما قد تغلبه شـهوته فعلى كل حـال كلاهما ذنب لكن ذنب هذا أخف من هذا.

الشـاهد من كل ذلك أن الـذنوب يا أخـوة قد تكـبر بما يحتف بها من أمـور فليس كل الزنا واحـداً، وليس كل القتل واحـداً، وكـذلك ليس كل الشـرك واحداً وإن كان كل الشـرك كله مخلد في النـار لكن بعضه أشر من بعض، بعضه أضل من بعض، والنــار دركـات كما أن الجنة درجــات، فالله تبــارك وتعــالى يجعل الكفــار كلهم في نــار جهنم، ولكن المنــافقين أســفل، المنافقون أسفل، وكذلك الكفار جميعاً في جهنم لكن الصادين عن سـبيل الله لهم إثم مع الإثم كما قال تبـارك وتعـالى: {الـذين كفـروا وصـدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون} (النحل:88).

فهذا عذابه يضاعف فلا شك كل شـيء بحسـابه فالشـرك والكفر درجـات، وكذلك النفاق درجات، هناك نفاق اعتقـادي، وهنـاك نفـاق عملي، وكما أن أهل الإيمـان يتفاضـلون في الجنة بأعمـالهم، فكـذلك أهل الكفـران، وأهل الشقاق يتفاضلون في النار بإثمهم وفجورهم.

أسـأل الله تبـارك وتعـالى أن يجنبنا الخطأ والزلل في القـول والعلم، وأن يعصمنا من هذه الكبائر العظيمة وأن يردنا إليه رداً جميلاً.

****

الكذب رأس الخطايا

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شـرور أنفسـنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هـادي لـه، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحــده لا شـريك لـه، وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسوله.

أما بعد:

فإن خـير الكلام كلا الله تعـالى، وخـير الهـدي هـدي محمد صـلى الله عليه وسـلم، وشر الأمـور محـدثاتها، وكل محدثة بدعـة، وكل بدعة ضـلالة وكل ضلالة في النار.

أيها الأخوة الكرام:

الــذنوب تعظم وتصــغر، أعــني منها كبــائر وصــغائر، وقد بينا في الخطبة السابقة بعض هذه الكبائر كما نص على ذلك النبي صلى الله عليه وســلم، وهي الشرك بالله، وقتل الولد مخافة أن يطعم مع أبيه، وكذلك قال النبي: [وأن تزاني حليلة جارك] (أخرجه البخاري (8/163 الفتح)، ومسلم (86)).

وفي سياق معرفة كبائر الذنوب وصـغارها، نبـدأ بـذنب من أعظم الـذنوب وهو الكـــذب، وذلك أنه رأس الخطايا جميعـــاً، كما أن الصـــدق هو رأس الهـدى، كما ثبت من حـديث ابن مسـعود في الصـحيحين أنه قـال: قـال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: [إن الصـدق يهـدي إلى الـبر، وإن الـبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحـرى الصـدق حـتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكـذب فـإن الكـذب يهـدي إلى الفجـور، وإن الفجـور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب يتحرى الكذب حـتى يكتب عند الله كذاباً] (أخرجه البخاري (8/163 الفتح)، ومسلم (2606)).

هذا حديث عظيم من جوامع كلم النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وهو يـبين فيه أن الصدق هو رأس كل خلق حسن، وهو الـذي يهـدي صـاحبه إلى كل بـــر، وإلى كل توفيـــق، وإذا وفق للـــبر فلا شك أن طريق الـــبر هو طريق الجنة، وكذلك الكذب هو رأس الخطايا وهو بدايتها وهو الذي يهدي إلى كل فجور، والفجور لا شك أنه طريق النار.

الكـذب كلمة كبـيرة معروفة تشـمل عناصر كثـيرة، ولا شك أن المعصـية بالكذب أو هذه الكبيرة تكبر يعظم نوع الكذب، وقد يكون صغيرة.

فمتى يكون الكـذب كبـيرة عظيمة من الكبـائر؟ ومـتى يكـون صـغيرة من الصغائر؟.

يعظم الكذب إذا كان كذباً على الله سبحانه وتعالى، هذا أعظم الكذب.

قال تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً} (الأنعام:21).

فأعظم الذنوب هي افتراء الكذب على الله تبـارك وتعـالى، وهو من اتبـاع خطوات الشيطان، كما قـال تبـارك وتعـالى: {يا أيها النـاس كلـوا مما في الأرض حلالاً طيبـاً ولا تتبعـوا خطـوات الشـيطان إنه لكم عـدو مـبين. إنما يأمركم بالسـوء والفحشـاء وأن تقولـوا على الله ما لا تعلمـون} (البقـرة: 168،169).

أعظم الكـذب على الله ادعـاء النبـوة، هـذا أعظم كـذب على الله تبـارك وتعـالى، من ادعى نبـوة فلا شك أنه من أعظم المفـترين والكـاذبين على الله تبارك وتعالى، ولذلك كان الأنبياء الكذابون هم أعظم الناس عذاباً عند الله تبارك وتعـالى، ولـذلك بـرأ الله تبـارك وتعـالى نبيه محمـداً صـلى الله عليه وسلم والأنبياء الصـادقين بأنه لم يكونـوا ليقـترفوا هـذا الإثم العظيم، وهو من أعظم الــذنوب، والمعلــوم أن محمــداً صــلى الله عليه وســلم، والأنبيــاء الصــالحين كـانوا من أتقى النـاس ومن أخـوف النـاس، وكـانوا يتورعون من الكذب على الخلق، فكيف يقتحمون الكذب على الله سبحانه وتعالى.

من الكذب على الله أن تقول أحل الله تبارك وتعـالى كـذا ولم يحلل هـذا، وحرم الله تبارك وتعالى كذا ولم يحرم هـذا، وقد عنف الله تبـارك وتعـالى الكفار في ادعائهم ما شرّعوه لأنفسهم أنه من عند الله تبارك وتعالى.

فقـال جل وعلا: {ولا تقولـوا لما تصف ألسـنتكم الكـذب هـذا حلال وهـذا حــرام لتفــتروا على الله الكــذب إن الــذين يفــترون على الله الكــذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم} (النحل:116،117).

هنا لام الله تبـارك وتعـالى المشـركين في أنهم كـانوا يحلـون ويحرمـون بـأهوائهم، ويقولـون: هـذا ما أحله الله وهـذا ما حرمه الله تبـارك وتعـالى، ولذلك أصل المسلمون أصلاً عظيماً في أنه لا يجـوز لمسـلم أن يقـول إن الله أحل كـذا أو حـرم كـذا إلا أن يكـون الله تبـارك وتعـالى قد نص على تحليل هذا الأمر، ولا شك أن إثم المحرم كإثم المحل، بعض الناس يتهـاون في التحريم، وذلك في زعمه منعـاً وحماية لجـانب الـدين، وقد يتـورع في التحليل في أن يحل شيئاً وهو حرام عند الله تبارك وتعالى، لكنه قد يقحم نفسه في أن يحـرم ما لم ينص الله تبـارك وتعـالى على تحريمـه، ولا شك أن التحـريم والتحليل سـواء، فلا تُحـرِّم ولا تُحلِّلْ، ولا تقل حـرم الله كـذا وأحل كذا إلا أن يكون عندك نص وبرهان من الله تبارك وتعـالى، فـإذا نص الله عز وجل على أن هــذا شــيء حلال فأحلــه، وإذا نص على أنه حــرام فحرمــه، وإذا لم يوجد فيه نص لا بتحليل ولا بتحــريم، فهـذا ينظر فيه أهل العلم كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: [الحلال بيِّن والحــرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه..] (أخرجه البخاري (52 الفتح)، ومسـلم (1599) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما).

في الحديث فقرة وهي: [لا يعلمها كثير من الناس].

فكثير من النسا قد يشتبه عليه ما ليس فيه نص من كتاب الله، ومن سـنة النبي، فـأمر النـبي صـلى الله عليه وسـلم المتـورع أن يـترك ما يظن فيه بأساً خوفاً من أن يكون فيه بأس، وشبه النبي صـلى الله عليه وسـلم من يـدخل في الشـبهات في الأمر المشـتبه الـذي قد يكـون حلالاً، وقد يكـون حراماً لا نص فيـه، حـذر النـبي من الاقتحـام فيه كمن يحـوم حـول الحمى يوشك أن يقع فيـه، لكن لا يجـوز لمسـلم أن يقـول في الأمر المشـتبه إن الله حرمه أو إن الله أحله هكذا بصـريح العبـارة، وإنما ينبغي أن يقـول هو يشـبه الحلال، أو هو يشـبه الحـرام كما قـرر هـذا في موضـعه من أصـول الفقه، أنه لا يجوز الافتراء على الله تبارك وتعالى بأن تقـول أحل الله هـذا الأمر، أو حرم هـذا الأمـر، وليس في هـذا نص من كتـاب الله ولا من سـنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

إذاً ينبغي للمـؤمن بـإزاء الله تبـارك وتعـالى بـإزاء شـرع الله عز وجل ألا يتقول على الله، إياك والتقول على الله تبارك وتعالى، وأن تقول على الله عز وجل مقتحماً الكذب، فإذا كنت تتعمد هذا، فلا شك أن فاعل هذا كـافر خارج من دين الإسلام، أما إذا كان هذا بجهل فـإن هـذا من اتبـاع خطـوات الشيطان كما قال الله تبارك وتعالى: {يا أيها النـاس كلـوا مما في الأرض

حلالاً طيباً ولا تتبعـوا خطـوات الشـيطان إنه لكم عـدو مـبين إنما يـأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} (البقرة:168،169).

فهذه الآية أصل عند علماء الأصول في أن الأصل في الأشياء الحـل، إلا ما حرمه الله تبارك وتعالى، الأصل في الأشـياء الحل لأن الله يقـول: {يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً}.

الـــذي في الأرض كله كلـــوه حلالاً طيبـــاً، ثم بين أن المحـــرم مفصل وأن الحلال متروك كما قال تبارك وتعالى: {وقد فصَّـل لكم ما حـرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه} (الأنعام:119).

فالحرام مفصل والحلال ما سوى ذلـك، ولـذلك الأصل في الأشـياء الحـل، كما أخذ بـــذلك علمــاء الأصــول فقــالوا: الأصل في الأشــياء هي الحـــل، والتحريم اسـتثناء، والتحـريم لابد أن يكـون بنص، فـإذاً لا تُقْحِمْ نفسك في أن تقول حرم الله تبارك وتعالى كذا وليس عنـدك دليل من كتـاب الله ولا من سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

احـذر أن تتقـول على الله تبـارك وتعـالى بغـير علم، إذا تعمد متعمـدٌ هـذا وقال: حرم الله تبارك وتعالى هذا وهو يعلم أن الله لم يحرمه، فهـذا كـافر خارجٌ من دين الإسلام متقـول على الله تبـارك وتعـالى أما إذا ظن واجتهد في زعمه ونسب هذا التحريم إلى الله تبارك وتعالى، وليس على بينة منه، فهذا لا شك أنه كذلك لا يجوز وهو من اتبـاع خطـوات الشـيطان، بل يجب على المؤمن أن يتورع ويقول: أظن هذا.

ربما يكون هذا أشبه بالحرام.

وربما يقاس هذا على الحرام الفلاني.

وربما من هذا البـاب، وذلك أن هـذه الأمـور الاجتهادية إنما هي أمـور ظنية وليست بقطعية، القطعي هو المنصوص عليـه، وأما الاجتهـادي فهو ظـني، أرجو أن يفهم هذا الكلام حق الفهم، وأن يدرك.

الاجتهادي ظني كل أمر اجتهادي فهو ظني لأن الاجتهـاد إنما هو ظن بحكم شرعي، وأما الأمور القطعية فهي ما نص الله تبارك وتعالى عليهـا، أو نص عليه رسوله صلوات الله وسـلامه عليه أو أجمعت عليها أمة الإسـلام، هـذا هو القطعي، هذه هي الأمـور القطعيـة، وما سـوى ذلك من أمـور اجتهادية فهي أمور ظنية يصيب فيها المجتهد ويخطئ ولذلك قـال النـبي صـلى الله عليه وســلم: [إذا حكم الحــاكم فاجتهد ثم أصــاب فله أجــران، وإذا حكم واجتهد فأخطأ فله أجر واحـــد] (متفق عليـــه) فلما كـــان المجتهد يصـــيب ويخطئ كان أمراً ظنياً، وليس أمراً يقينياً ولا قطعياً.

هذه واحدة.

أيضـاً من الكـذب العظيم الكـذب على النـبي صـلوات الله وسـلامه عليـه، وذلك أن النبي في مقام المشرع بشرع عن الله تبـارك وتعـالى، باعتبـاره مُفوضـاً وكل كلام النـبي تشـريع صـلوات الله وسـلامه عليـه، ولا شك أن منزلة كلامه من الأخذ والعمل كمنزلة كلام الله تبارك وتعالى سواء بسـواء

في العمل يعـني يجب أن نعمل بكلام النـبي كما نعمل بكلام الله سـبحانه وتعالى.

كما قال سبحانه وتعالى: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} (النساء:80).

فطاعة النـبي هي طاعة لله سـبحانه وتعـالى، لأن النـبي لا ينطق من عند هواه، وإنما يقول عن الله تبـارك وتعـالى ويتكلم عن الله عز وجـل، لـذلك كان الكـذب على النـبي هو الكـذب على الله تبـارك وتعـالى، ولـذلك قـال صلى الله عليه وسلم، كما ثبت في الصحيحين، بل هو حـديث متـواتر روي من وجوه كثـيرة جـداً: [من كـذب عليَّ متعمـداً فليتبـوأ مقعـده من النـار] (انظر صحيح الجامع الصغير (6519)).

فمن كذب على النبي متعمداً، فلا شك أنه -يعني- قد تبوأ مقعدة من النار، وهـذا لا خلاف في كفـره وخروجه من دين الإسـلام إذا تعمد الكـذب على النبي وقال يقول النبي كذا، وهو يعلم أن النبي لم يقله، أو نهى النــبي عن كذا، أو أمر بكـذا ولم يقله رسـول الله صـلوات الله وسـلامه عليه ولم ينه عنه، فلا شك أن هـذا مـرتكب كبـيرة من الكبـائر تخرجه من دين الإسـلام عياذاً بالله، كـذلك الأمر لا يجـوز أن نقـول كما يقـول كثـير من الجهلة في أمر حادث أمر جديد لو كان النبي موجوداً لأحل هذا أو لحرم هـذا أو لقـال في هذا الأمر الفلاني كذا، وما يدريك؟ وما يدريك أن النبي لو كان موجوداً لقال ما تقول واجتهد كما تجتهـد؟ وفعل كما تفعـل؟ هـذا من الكـذب على النبي صـلوات الله وسـلامه عليه وإنما يجب أن تقـول في أي أمر لم يقله النبي أمر اجتهادي تقول الظن في هذا الأمر اجتهد في هذا الأمر ورأيي هو كذا وكذا، لا أعلم فيه سنة عن النبي صلوات الله وسلامه عليه، وهذا كــان حال الصحابة عندما يسألون عن حكم لا يعلمون فيه سنة للنبي صـلى الله عليه وسلم يقولوا: "لا نعلم فيه سنة وإنما أقول فيه برأيي فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان".

إذاً لا تقحم النبي في أمر اجتهادي، وتقول لو كـان موجـوداً في هـذا الأمر لحكم بكــذا ولقضى بكــذا وما يــدريك؟ وما يــدريك أن يكــون الحكم على خلاف ذلك، بل قل هذا حكمي وهذا ظني وهذا اجتهادي ولا أنسبه إلى الله ولا أنسبه إلى رسوله صلوات الله وسلامه عليه، إن كان صواباً فمن اللــه، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، تعمد الكذب على النبي كفــر، والخطأ في هـذا كبـيرة، والتقحم في هـذا ونسـبه الأمر إلى النـبي لا شك أنه من الكبـائر لا تقحم النـبي صـلوات الله وسـلامه عليه في أمر تجتهد به أنت وتراه أنت لأن الأمر قد يكون على خلاف ذلك.

ثم بعد ذلك يأتي الكذب على المؤمنين.

الكذب على عباد الله تبارك وتعالى، ولا شك أن الكذب على عبــاد الله عز وجل كذلك يتفـاوت، فـأعظم الكـذب على عبـاد الله أن تكفر مؤمنـاً وأنت كاذب أن تقول: قال كذا فكفر بـه، وأنت تعمل أنه لم يقله وهـذا كفر بالله تبارك وتعالى وخروج من الدين كما قال صلى الله عليه وسـلم: [من قــال لأخيه يا كـــافر، فقد بـــاء بها أحـــدهما] (أخرجه مالك (984) والبخـــاري (10/514 الفتح).

علماً أن هـذا قد يكـون في غضـب، وقد يكـون في سـب، أما إذا كـان في هــدوء ولم يكن في سب أو تقــول وكــان في نقل أنت تعلم أنه كــذب فلا شك أنك تكفر بهـا: [من كفر مسـلماً فقد كفـر] إذا كفـرت مسـلماً وأنت تكذب عليه وتنقل عنه ما لم يقل، وتقول ما لم يقل، وتقوله ما لم يقل، أو تلزمه بلازم قوله ولا يلتزم هذا اللازم ولا يقول به وتكفره بذلك لا شك إنك تكفر وتخــرج من دين الله تبــارك وتعــالى، لأن من ادعى في مــؤمن بأنه كافر وليس كما قال إلا حار عليـه، وكـذلك إذا اتهمته بما يلعن به أو يفسق به أو يبدع به وليس كذلك فـأنت أحـرى بهـذا الوصف يرجع عليك كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: [إن العبد إذا لعن شـيئاً صـعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبـواب السـماء دونهـا، ثم تأخذ يمينـاً وشـمالاً، فـإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لُعن، فإن كان لـذلك أهلاً، وإلا رجعت إلى قائلهــا] (أخرجه أبو داود (4/277) وحسنه الألباني انظر الصحيحة (1269)).

إذاً الافتراء على المؤمـنين منه كبـائر عظيمـة، ومن هـذه الفـرى اتهـامهم بالزنــا، وقد نص الله تبــارك وتعــالى على أن هــذا كبــيرة عظيمة تــوجب عقوبات ثلاث كما قال تبارك وتعـالى: {والـذين يرمـون المحصـنات ثم لم يـأتوا بأربعة شـهداء فاجلـدوهم ثمـانين جلـدة ولا تقبلـوا لهم شـهادة أبـداً وأولئك هم الفاسقون} (النور:4).

ثلاث عقوبات لمن قـال عن مؤمنـة، أو محصـنة أنها زانيـة، أو أنها بغي، أو أنها بنت زنا، أو إن أمها كـذا، أو نحو ذلك كلـه، إذا اتهمت مسـلمة محصـنة بالزنــا، فلا شك أنه إما أن يكــون صــدقاً أو لا يكــون صــدقاً إلا بــأن يــأتي الرامي بأربعة شهداء يشهدون هذا كما قال تبارك وتعالى: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة} (النور:4).

يعني حتى وإن كان صادقاً فهو كـاذب، إذا تلكم ولا يملك بـأن يـأتي بأربعة شهداء، قال تبارك وتعالى: {فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شــهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا..} (النور:4).

فهؤلاء لا شك أنه إجماعاً رمي المحصنين كرمي المحصنات، أعـني أن من رمى مؤمناً محصناً ذكراً فكذلك حكمه حكم من رمى محصـنة، الآية نصت على المحصــنات ولكنها لم تــذكر المحصــنين، ولا شك أن الحكم واحــد، إجماعـاً ولا فـرق بين المسـلمين بتاتـاً أقـول ولا خلاف بين أهل الإسـلام جميعاً أن من رمى رجلاً كمن رمى امـرأة، من رمى رجلاً مؤمنـاً محصـناً كمن رمى امـرأة محصـنة، فـالرمي بالزنا كبـيرة من الكبـائر إن لم يـأت صاحبه بأربعة شهداء يشهدون هذا، وإلا كان عقوبته ثلاث عقوبات كما نص الله بتارك وتعالى، الجلـد، وأن تـرد شـهادة أبـداً ولا تقبل منه لا على عقد زواج ولا على عقد بيــع، ولا عقد تجــارة ولا على أي عقد بتاتــاً، ثم يكــون فاسـقاً عند المؤمـنين يظل بهـذا، ثم قـال الله تبـارك وتعـالى: {إلا الـذين تابوا}، والبعض يرى أن هذا الاستثناء راجع إلى الفسق فقط، والبعض يرى من الفقهاء أنه راجع إلى الأمرين إلى قبول الشهادة، وإلى انتهاء الفســق، وأما الحد، فواجب إذا وصل إلى السلطان، ولا يسقط بالتوبة إذا وصل إلى السـلطان ولا يسـقط بالشـفاعة يعـني لا يجـوز الشـفاعة فيه لأنه حد من حدود الله تبارك وتعالى، بعكس حـدود القصـاص قد تسـقط بالشـفاعة إذا

قبلها أوليـاء الـدم، وقد تسـقط بالتنـازل من أوليـاء الـدم أنفسـهم، أما حد القذف وحد السرقة والحدود الأخرى غير القصاص فإنها حـدود من حقـوق الله تبـارك وتعـالى لا تسـقط لا بشـفاعة ولا بتنـازل أي إن تنـازل صـاحب الحق الذي سب المسبوب ذهب للحاكم، وقال له: تنازلت عن من سـبني، لا يسقط الحد لابد أن يحد لأن هذا من حقـوق الله سـبحانه وتعـالى، وهـذا بعكس القصاص، الشاهد أن الافـتراء على مسـلم برميه بأنه ابن زنا أو هو زان أو من هذا السبيل فهذا لا شك أنه كبيرة من الكبائر، وقد قـال تبـارك وتعالى: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنـوا في الـدنيا والآخرة} (النور:23).

لعنهم الله تبـارك وتعـالى في الـدنيا والآخـرة، وكـذلك قد أعد لهم عـذاباً عظيماً.

كذلك من الكبائر الكذب على أهل الإيمان أن تكذب عليهم بما يوجب حـداً غير القذف، فإذا كـذبت على مـؤمن بأنه قاتـل، وليس كـذلك، وأنه سـارق وليس كذلك، وأنه خائن وليس كـذلك لا شك أن هـذا كله من الفـرى وأنت محاسب على ذلك بين يدي الله تبارك وتعالى، أما إذا لم يوجب حداً وكان نوعاً من الفرية فهو كبيرة من الكبـائر والـدليل على ذلك أن الغيبة يعـدها بعض العلماء كبيرة علماً أنها صدق، وأما الكـذب بهتـان أكـبر من هـذا كما نهى النبي عن الغيبة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال: [أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: [ذكرك أخاك بما يكره]، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قـال: [إن كـان فيه ما تقـول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته] (أخرجه مسلم (2589)).

فالذي نتكلم عنه إنما هو البهتان، فإذا كانت الغيبة وهي صدق من الكبـائر، فكيف بالبهتان لا شك أنه من أكبر الكبائر، وأقول الغيبة من الكبـائر لقـول الله تبـارك وتعـالى: {ولا يغتب بعضـكم بعضـاً أيحب أحـدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم} (الحجرات:12).

لذلك عدّ بعض علماء المسلمين الغيبة من الكبـائر علمـاً أن الغيبة صـدق، أما البهتان فهو من أعظم الكبائر على المسـلم، ومن أعظم الكبـائر الـتي ترتكب، وهي تتفاوت كما ذكرنا، فإن كـان الكـاذب كـذب عليه في أنه كفر ولم يكفر فهو كافر، أو بهته بما يستحق اللعن أو يستحق الحد، فلا شك أنه الأليق بهذا، إذاً الكـذب يتفـاوت، ولا شك أن الكـذب قد يكـون منه صـغائر وهو الكذب في المزاح ونحو ذلك من الأمور الـتي يعلم النـاس إنها كـذب، فهـذه صـغائر، وقد نهى النـبي صـلى الله عليه وسـلم عنها علمـاً أنه توعد على بعضها كما جـاء في الحـديث: [ويل للـذي يحـدث فيكـذب ليضـحك به القوم، ويـلٌ لـه، ويـلٌ لـه] (أخرجه أحمد (5/3،5،7) وأبو داود والترمـذي (2315) وقال: هذا حديث حسن).

فمجرد الإضحاك وإن كان أمر من الكـذب، وهـذا قد لا يكـون فيه ضـرر ما ولا أذية بمسلم معين وإنما أراد أن يضحك النـاس بشـيء لا يتعلق بمسـلم معين.. وإنما يذكر مثلاً أو نكتة من النكات لا تتعلق بشخص ما هذه لا شك

إنها قد تكون من الصـغائر لكنها كـذلك لا شك إنها مما يـوجب الحـذر لأنها كذلك من جملة الكذب.

على كل حال الكذب رأس الخطايا والإنسـان الكـذاب لا شك أن فيه رأس كل بلية وكل بلية تتأتى بعد ذلك من هذا الكذب وممكن للإنسان أن يتـدرج فيبـدأ بالكـذب على النـاس ثم يكـذب على الرسـول يريد أن يؤكـدها لأن الكذاب يكـذب كذبة ثم يريد أن يؤيد كذبته فيكـذب كذبة ثانيـة، ثم يريد أن يؤيدها فيكذب كذبة ثالثة، ثم يريد أن يؤيـدها فيكـذب كذبة رابعـة، وهكـذا، وقد يتـدرج به الكـذب فيبـدأ بالكـذب على النـاس، ثم يـأتي بالكـذب على الرسول صـلوات الله وسـلامه عليـه، ثم بعد ذلك يتـدرج إلى الكـذب على الله تبارك وتعالى، وقد يؤوِّل آيات الله عز وجل على غــير معانيها ويحملها على غير معانيها ويعلم أن هذا التأويل كذب، فيكون كاذباً على الله تبـارك وتعالى، ومتقولاً على الله عز وجل.

لذلك أقول مرة ثانية حديث النبي صلوات الله وسلامه عليه: [وإن الكـذب يهدي إلى الفجور].

بداية الذنب كذبة، تبدأ بكذبة إذا لم ترجع عنها وتستغفر الله تبارك وتعـالى وتتوب ممكن يستدرجك الشـيطان إلى كذبة ثانية ثم يسـتدرجك إلى رابعة تبدأ بالكذب على الناس ثم تنتهي بعد ذلك بالكذب على الله تبارك وتعالى، وهذا الحال دائماً.

الحال دائماً في الذنوب تبدأ هكذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في السارق: [لعن الله السـارق، يسـرق البيضـة، فتقطع يـده، ويسـرق الحبل فتقطع يده] (أخرجه البخاري ومسلم).

قيل معنى الحديث أنه يبدأ بسرقة الأمور الصغيرة ثم يتدرج به الأمر حــتى يسرق الأمور الكبيرة فتقطع يـده بالسـرقة لأنه لا سـرقة في أقل من ربع دينار، وهكذا الكـذاب، يبـدأ بالكـذبات الصـغيرة متهاونـاً فيها حـتى يصل به الشيطان بالكذب على الله سبحانه وتعالى.

إخواني:

الكــذب مذمة ومنغصة عظيمــة، والمســلم هو الصــادق كما قــال تبــارك وتعـالى: {يا أيها الـذين آمنـوا اتقـوا الله وكونـوا مع الصـادقين} (التوبـة: 119).

ينبغي أن تكون صادقاً، والإيمان الحق أن تقول الصدق ولو يضرك، ولا تقل الكذب ولو ينفعك.

****

******